عـادل قريد

حكاية إيطالية

رواية

فتيان غجر أماديو

"رضيع يبكي من أجل النور

بلا لغة سوى البكاء".

ألفرد تينيسون شاعر إنجليزي 1809 1892

"كلّ من يواجه مشكلة يحتاج إلى البكاء."

ألكسندر لوين

آوه، أنت الصبي الباكي

دون بونيللو أرجوك..

كفّ عن البكاء !.

أحداث الرواية وأماكنها وشخصياتها، من خيال الكاتب فقط .

في صباح شتوي شاحب بلون التعاسة الرمادي؛ أنشد الهدوء بينما أتصفح جرائدًا إلكترونية، وأستمع لموسيقى هادئة دون صخب وبلا ضجيج، أرنو حينًا عبر زجاج نافذة موارية محدّقًا للأفق، ونحو قمم جبال بعيدة بات لونها أبيضًا من الثلج .

رنّ جرس باب الشقة مديدًا، تلكّأت قليلاً إلى أن نهضت بشيء من الكسل فتحت الباب، وأمام العتبة وجدت ساعي البريد منتظرًا. لقد بدا مستعجلاً ذلك أنّه سلمني ظرفًا على السريع، ثمّ انتقل قاصدًا وجهة أخرى، دفعت الباب برجلي ليهتزّ الجدار الضعيف، وينطلق صوت بكاء رضيع في الجوار، بالكاد فتحت الرسالة عاد الدقّ بعنف للباب، وما إن فتحته؛ حتّى ألفيت أمامي الجارة "ياسمين" ترتعد مثل هاتف نقال بوضعية إهتزاز، تضرب على الأرض بقدميها كأنّها عازفة للحن يشي بالقلق، والغضب، بالكاد نبست بكلمة دفعتني، ثّم اندفع الباب بجنون واجتازت الرواق بينما تحتضن رضيعًا باكيًا تهزه بلطف، وتُربِّت على كتفه .

شرحت ياسمين أنّى لاستيقاظ الرضيع من غفوته على صوت الباب كان السبب في غرقه بوصلة من البكاء لتضيف عبارات تعاتبني فيها بصراخها في وجهي بينما كنت أحاول جاهدًا تهدئتها؛ لكن بلا جدوى، جلست على الكنبة بينما تترنم بأناشيد شعبية لعلّها تستكين نفسه ويكفّ بكائه.

بشيء من التوتر، أسرعت لغرفة النوم بحثًا عن مفاتيح السيارة، وببالي سأرافقها، وابنها للطبيب لأرتاح من مناكفتها، بحثت في كلّ مكان يخطر على بال، الخزانة، أمام السرير، على المكتب، جيوب السترة، كأنّه قطعة سكر ذابت في قدح قهوة بلا أثر، من الشرفة حيث اعتدت الإختلاء بنفسي تطلّعت للعثور عليه غير أنّي لم ألفيه؛ بل وجدت كتابًا كنت أبحث عن مكانه بالأمس. الكتاب كنت قد استعرته من صديق، ولم أرجعه مذ فترة مديدة لا أنا قرأته فأنهيته، ولا أنا أعدته لصاحبه؛ الّذي لطالما كان يصرخ بوجهي مرارًا في المكتب مطالبًا بكتابه .

ما إن لمحت سيارة "فيروز" تركن بحظيرة الحيّ، حتّى هرولت للصالة مسرعًا، في حين ياسمين كانت قد تسلّلت دون أن أنتبه لها إلى أين؟ لا أدري، أشعلت سيجارةً؛ لكنّي لم أنعم بها مديدًا.

جلست فيروز قبالتي، وكعادتها كانت تستعد لإلقاء خطابها المرير وأسطوانة أَلِفت ترديدها، كإرهاقها من العمل، وانزعاجها من أولياء الأطفال، ولؤم مربيات الروضة، منزعجة متذمّرة؛ حتّى من حذائها الذي كان ملتصقًا يأبى الخروج من قدمها بيسر. كيف لا؟، والحذاء ضيّق مقارنة بقدمها الكبيرة؛ سيبدو للناظر غير مناسب لها بلا شك؛ إلّا أنّ فيروز عنيدة ترفض التسليم بالأمر، كانت مهووسةً برقم تسعة وثلاثين. لا أدري! لم لا تلبس أحذية برقم أكبر؟، كان ليبدو مريحًا لقدمها، ومريحًا لي من تذمرها، ببساطة إنّه الهوس بالموضة والتناسق والأقدام الصغيرة، لو كانت الموضة في الأقدام الكبيرة لألفيتُها تبتاع مقاييسًا

ضخمة، وتحشو الفراغ بالجرائد والقطن، وكم أتمنى أن لا تقرأ يوما عن الإمبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث التي كانت لا تلبس حذاء مهما غلا ثمنه أكثر من مرة واحدة. أليس أحيانًا الموضة ما تحرك عقول بعض النساء وتعبث بهم؟.

كانت سارة وياسمين تتجاذبان أطراف الحديث، في لحظات كانت ترمقن فيروز بحدّة. بدوت مع نظرتها متهمًا بشيء ما، بينما لا مجال لي لشرح ما أو إبداء أيّ عذر، أي سوء تفاهم يمكن أن تشرحه لامرأة يبدو أن كبرياءها مجروح في لحظات يغدو العقل لا صوت له أمام كبرياء مهان، زوجتي حملت نفسها وغادرت، ليرتفع في المقابل صراخ ياسمين بوجهي فابنها بدا عليلا شاحبا منخرطا في بكاء مزعج .

سارعت لحمل الصبي المريض إلى عيادة قريبة، في وقت كان الجو باردا، بالشارع مع هبوب لسعات هواء تتسلل لظهري فشعرت بقشعريرة ولأدرك معها أنّ مناعتي ضعيفة، والتيار البارد قد تمكن منّي حين خروجي، نزلة برد أتوقعها سترقدني في الفراش لا محالة، ثم انخرطت في العطس أكثر من مرّة .

في العيادة يبدو أغلب الحضور مصابا بنزلة برد في هذا الطقس المتقلب الذي عرفته المدينة في الساعات الأخيرة، ملامح متعبة لوجوه تشكو رشحًا موسميًا يحتلون المقاعد في إنتظار دورهم، أنوفهم حمراء يعطسون بالتناوب فيما يحملون مناديلا ورقية يمسحون بها مناخيرهم في كل مرّة ليتخلصوا من المخاط، افتتحت أولى جولات مفاوضتي مع

عجوز في أراذل العمر تبدو أيضا بسمع محدود لكنها كانت عنيدة ترفض بإلحاح التنازل عن دورها، أدركت أنّ لا مجال أمامي لإعادة المحاولة.

لمحت شابا في مقتبل العمر جالسا ينتظر دوره تقدمت نحوه مترددًا سألته بتطفل إلا أنه كان منفتحا على الحديث، وما إن تجاذبت معه أطراف الحديث حتى ألفيته يلوي طلب شهادة مرضية تبرر غيابه ليعيد إجراء إمتحانات شهدت غيابه كونه أمضاها غارقًا بلقاءات حميمية مع صديقته. هذا العبث واللامبالاة صار متجذرًا ولصيقًا في كثير الشباب من الدارسين بالجامعات، الذين يدرسون وما أكثرهم في النهاية لا يلفون وظيفة تنتشلهم من الضياع والبطالة. بعض يفضل إمضاء وقته في طرق أبواب اللهو والعبث فحسب على أن يركّز مع دراسته، دراسة بنكهة العبث، واللاجدوى أحيانًا .

لحظات طفقت أرنوا فيها للمنتظرين الذين كانوا يعطسون الواحد تلو الآخر كسمفونية إخترت لها اسمًا، سمفونية الرشح .

كان الرقم واحد وثلاثين مدوّنًا على بطاقة المواعيد رقمي، أمّا المريض الذي كان يتهيأ للدخول رقمه الرابع عشر حسبت الفارق بين البطاقتين فشعرت باليأس، عرضت على صاحب الرقم منحه ألف دينار ليترك لي مكانه، نظر إلى الورقة النقدية للحظات ثم طأطأ رأسه وأجاب" موافق". قابل بعض المرضى ردّ الفتى باستهجان، فتعالت أصواتهم وصافراتهم، ببساطة قد يقدم المرء على أشياء سيئة كالتدخين ورمي

ورق المناديل الملوث بالمخاط في الأرض فلا يأبه له، لكن إن سولت للمرء نفسه حرق الطابور ستنبري له ملامح غاضبة تثور بوجهه في النهاية.

عندما طرحت الممرضة استفساراً بشأن من يرافق الصبي أشرت لها باصبعان برفع إصبعي السبابة والوسطى بينما بقية الأصابع كانت مضمومة مشكلا إشارة النصر أقصد أي معاً، كشف الطبيب لم يستغرق وقتا مديدا ووصف له أدوية، وطلب تحاليل مخبرية، تحينت الفرصة لأطلب دواء يعالج الرشح فكان لي ما أردت ما إن تفحصني. أطراف أعين تتابعني في الرواق حانقة من تصرفي الذي كان أنانيا، طفقت أبحث عن أقرب صيدلية لأبتاع الدواء في إنتظار الغد لعمل تحاليل مخبرية للصغير .

مساءً قفلت آيباً للبيت على حال سيئة، كنت أتصبب عرقًا. هاتفت فيروز محاولا مهادنتها؛ إلا أنّ هاتفها لا يردّ خارج التغطية. سامر أيضا، بينما ابنتي تركت لي رسالة تشير إلى أنها تمضي وقتها في زيارة الجدّ، بالصالة كنت أحاول إزالة بعض التوتر عن نفسي بالاسترخاء، إلى أن انطلقت من المطبخ صوت ماكينة إعداد القهوة.

تذكّرت الرسالة فهرولت نحو الغرفة، وحملتها بين يدي بشيء من اللهفة ...

دفعت الباب برجلها بجنون لتسكب آهاتها كنهر جارف.

ـ أريد الطلاق... هل هو ابنك؟.

ـ اهدئي سأوضح الأمر .

ـ كنت تخونني مع عاهرتك يا وغد؟.

ـ مهلا، مهلا... إنه سوء تفاهم .

ـ لست غبية يا نادر.

...

شبهة العلاقة مع ياسمين ستوقعني في ورطة مع فيروز لا محالة، طفق الباب يُدقّ مرّة أخرى، يا لها من أمسية لا تمضي ساعاتها على نحو هادئ، فتحت الباب احتضنتني ياسمين باكية لتضمني بحرارة، تكاد تعصرني بقوة، لم تتمالك نفسها فطفقت تلعنني وتسبني باكية... هُرعت مهرولا إلى شقتها لرؤية الصبي. لقد كان في مهده الصغير دنوت نحوه ومددت له يدي فلمسته وتحسست نبضه الذي بدا لي ضعيفاً، حملته في عجالة قاصداً المشفى بيد أنّنا ما كنّا ندرك حملنا طفلاً قد ارتقت روحه، كان بارداً كدمية.

سيمضي الصبي ليلته في المشرحة بينما والدته انخرطت في البكاء والعويل. لقد استغرقت وقتاً مديداً في الولولة قبل أن تهدأ وتستكين ما إن حقنت بمهدئ سيخفف ولو قليلا مرارة الفقد، غادرنا المشفى بينما

فيروز لا أظن أنها تملك عقلا متزنا فما إن أدارت رأسها للمقعد الخلفي للسيارة حتى تلكأت قليلا ثم فاضت كنهر:

ـ لا تحزني هو ابن ...

ثورة ياسمين وملامحها الغاضبة كانت كافية لتنشب أظافرها بوجه فيروز، الّتي إندلق صوتها صارخًا بأعلى صوتها... دست على المكابح فجأة إلا أنهما واصلتا تلاسنهما ثم اندفعتا خارج السيارة والتصقتا بالأيدي، هرولت نحوهما وحاولت ثنيهما وإبعادهما وفشلت، بينما الفضول كان دافعا ليتحلّق حشد من المارّة الذين سارعوا لتفريقهما .

ما كانت لتصمت فيروز لو لم تقذف مثل كرة بقوة في السيارة بينما بعض المارّة راحوا يهدئون من روع ياسمين الملتاعة، استقلت ياسمين سيارة أجرة، بينما غادرت المكان وبصحبتي فيروز الغبية.

ـ لِم أنت وقحة؟ .

ـ إنّها الصراحة .

ـ بل وقاحة.

كانت فيروز أغلب الوقت تألف مزيدا من نظريات المؤامرة وحكاية أنّ الولد ابني. في وقت متأخر كنت أشعر بصداع شديد ما لبثت رميتني إلي فراشي مغريا النوم ليزورني، ولكنّها فيروز ماتزال كنحلة تطنّ على رأسي، يا لها من امرأة مزعجة وضعت الوسادة مغطيا أذني ثم تقلبت؛

تقلب سيخ شواء على سفود. لم أنم ولو لدقائق، نظرت إلى المنبه كانت الرابعة صباحا.

نهضت من السرير وطفقت ألوي غرفة الإستقبال إنحنيت بشغف وحملت ظرفًا وفتحته وجدت أنه كان يحمل إشعارًا من أجل تجديد وثائق خاصة بي تطلبها مؤسسة العمل ومصالح الضرائب .

***

بعد وقت قصير إتصل بي أخي يعاتبني لجفائي. حقا كنت أبدو كمخلوق غير إجتماعي، قليل الزيارات للأقارب حتى بالأعياد. كما أنّي كنت عنيدا أنشغل بفكرة لِم لا يزوروني هم بدل إقدامي على زيارتهم؟. أعترف أنه في كل مرّة المبادرة ما كانت تنقصني.

جولة صباحية بيوم إجازة في شوارع المدينة، في حين يشغل بالي زيارة شقيقي لأنّي اشتقت إليه أيّما اشتياق. ربما! لم يكن ليخطر ببالي زيارته لو لم يذكرن، حقا كنت أبدو جاحدا لا أفكر في عيادته.

كان يمضي شقيقي يومه بمحل للأثاث القديم والمستعمل، عادة ما ألفي بالمحل أشياء قديمة أثرية تباع بثمن زهيد كالكتب، وآلات الطرب، لوحات فنية، خزائن، مذاييع، هواتف، منحوتات، نظارات، ساعات قديمة بنكهة أثرية.

كان المتجر ملكا لأبي قبل أن يتقاعد وبواصل شقيقي على دربه حال تخرجه في الجامعة. ركنت السيارة بالجوار وما إن لمحني حتى هرول لمعانقتي .

جلسنا بعيدا بالباحة الخلفية نثرثر، ونسترجع الماضي، ونجترّ حكاياته ليمضي الوقت سريعا ومع إلحاحه لي بالبقاء حتى يجهزّ لنا طعاما، لقد اشتاق للأكل رفقتي كما كنا قبل سنين مديدة نتناول الطعام مع الأب هنا ونحن صغار.

ارتأيت أخذ جولة في الأرجاء. فطفقت ألوب بين الرفوف، أتفقد المقتنيات القديمة، الكلاسيكية .

كان المحلّ فيما مضى بمساحة تناهز أربع مئة متر مربع أمّا قبل فترة وجيزة وسّع شقيقي نشاطه، ذلك أن الاكتفاء ببيع المقتنيات الأثرية لا جدوى اقتصادية من ورائها، هناك فواتير الكهرباء والضرائب وأجور العمال، لذا فمن الضرورة بمكان العمل على ما يحقق توازنا والذي يمرّ عبر توسيع النشاط ببيع الآلات الكهرو منزلية، المحلّ اليوم نصفه مخصص للمقتنيات الأثرية والنصف الآخر للثلاجات وأجهزة التلفاز، والهواتف، وأجهزة تدفئة وآلات طبخ .

لطالما يأسر ألبابي ما كان عتيقًا فيه شيء من ذكريات الماض؛ عندما كنت حدثًا أذكر كثيرا من لحظات سعيدة تجمعني والمكان، لعبي لعبة الإختباء مع الأصدقاء والكرة بالشارع، كما تشدني أصوات ظلت تتردد

في ذهني فأغمض عيني لأنخرط في تواصل وذكريات فتراءت لي صور ومشاهد من عقود مضت.

سرت صوب زاوية كان بها ساعة صغيرة مائزة حملتها ورحت غارقا بتفاصيلها. قربت مرآة التكبير وجدت كتابة صغيرة بأحرف لاتينية، حفر على ظهرها سنة إثنتين وثلاثين صانعها ساعاتي من باريس نحت الحرف الأول، آم ثم نقطة "آلان" وكلمة باريس أسفل الكتابة، أرجعتها لمكانها. كان إلى جوارها هاتف قديم، كما لمحت أيضا جهاز فونوغراف يشبه جهازا كنت أملكه، لطالما استمعت من خلاله لكلاسيكيات الطرب العربي. عند الزاوية لمحت لوحة رسم بها مرفأ وصياداً يمسك شباك صيد وقت غروب الشمس تحديداً، بينما الثانية كانت لصبي صغير ينتحب تشي بالحزن. حملتها بين يدي لا أدري! لِم كنت مستغرقا في تفاصيلها، بينما نداءات شقيقي تصدح مناديا" نادر الطعام سيبرد ."

أثناء تناولنا الطعام ترددت قليلا ثم أبديت إعجابي باللوحة التي بها الصبي الباكي، اكتفى أخي برسم إبتسامة على شفاهه، ولم يعلّق على كلامي .

مضى الوقت سريعا وبينما أهمّ قافلا بالعودة للبيت، كان أخي قد أمر موظف المبيعات تغليف اللوحة وحملها إلى السيارة.

أنهيت الزيارة في لحظات كنت بها محمّلا وعامرا بالذكريات، من مكان أنفقت فيه صباي حملني في داخله ومازلت أحمله في قلبي. لطالما

كنت ألعب هاهنا مع فتيان الحي، أحنّ لطفولة مضت وأنّى لها أن تعود ليستمتع المرء بها، ويعيش أقصى لحظات الفرح، غادرت مسرعًا لا لشيء؛ إلّا لأنّي كنت مستعجلا لدفن الصغير بعد صلاة العصر.

لم تشهد مراسم الجنازة حضورا ملفتًا؛ بل قلة من الجيران والفضولين من يسعون للأجر والثواب، أنهيت المراسم الدفن سريعا ثم قدمت التعازي لي وللجارة التي كانت تنتظر بالسيارة، لقد كان المعزون يومئون برؤوسهم ويقدمون التحية أشبه بالتحية اليابانية لوالدته مرددين عبارات العزاء في فلذة كبدها .

في المساء استقبلت ياسمين بالبيت كانت تبدو من ملامحها متماسكة، لم نشأ تركها بالبيت وحيدة؛ كل من جرّب الوحدة يدرك كم هي موحشة ومريرة.

الموت أمرّ المرّ، في حياة البشر. لطالما كنت حزينا أيّما حزن عندما أرى طفلا صغيرا، فتى يافعا أو شابة حسناء طواهم الردى.

بدت شاحبة، ذابلة بلا وهج حزينة على صغيرها، فاقدة لألقها، حقا عند الفقد يخسر الحزانى شغفهم في الحياة، خسارة ياسمين ليست أي خسارة؛ لقد فقدت إحساسا بالأمومة، جلست إلى جواري فيروز بينما تعبث بهاتفها بلامبالاة في حين ياسمين كانت مستلقية على الأريكة ملتاعة.

كانت ياسمين فتاة ليل، قصتها كما الكثير من قصص الخيبة والإنحدار نزولا للحضيض كانت ترفض أن تتكأ جراحها، وكنت أحترم خصوصياتها. فلا يحق للمرء النبش في جراح المعطوبين، نبادر للمساعدة ما أمكننا دون حشر أنوفنا في حيوات الآخرين .

ران الصمت، سعت فيروز لاستدراك الأمر والفضفضة، أثنيت من عزيمتها فأشرت لها بالصمت ثمّ أمسكت يدها، ودفعتها خارجا لندعها ترتاح بسلام، أدرك أنّ بقاء فيروز في الصالة مصدر مضايقة فحسب.

كنت أدعو ياسمين أحيانا للبيت لتشاركنا وجبة العشاء، لأخفف ولو قليلا من وحدتها وحزنها لخسارتها صغيرها، بينما فيروز هي فيروز لا تتوانى في إبداء الشكوك بشأن ياسمين. كانت مرتابة من علاقة حميمية يمكن أن تجمعني والجارة ياسمين، لقد خبرت تفكير فيروز طوال سنوات عشتها معها، الآن غدوت لا مباليا لحديثها أتركها تثرثر، وتثور ثائرتها ثم أطفئ لهيبها، وأسكب الثلج على أعصابها بلامبالاتي، أرسم ابتسامة افتزازيه تغضبها ثم تستكين نفسها بالنهاية.

غمرني إحساس بالارتياح فقط عندما مضت أشهر غدت فيها زيارات ياسمين قليلة. بيد أنّ فيروز ظلت حذرة، أدرك أني تحت مراقبتها، ليس يسيرا أن لا تخاف الزوجة غدر زوجها وخيانته، الغيرة أحيانا لا تغادر تفكير المرأة. عادة ما تغدو حريصة لا يفوتها شيء. لذا آثرت قطع علاقتي بياسمين وتحاشي لقائها ربما، حتّى أهدئ من روع فيروز التي

ملأت رأسها بحكايات وسيناريو قد أمثل به دور البطولة رفقة ياسمين المفجوعة.

في العادة لمّا أدعو ياسمين للبيت أدع الأمر لفيروز أو سارة حتى أبث الطمأنينة لقلبيهما، وحتى أزيل فتيل الشكوك .

مضت الأيام بيد أن فيروز لا تنسى ألبتة، ولم تدعن وشأني فالارتياب جنون وفيروز مجنونة بقدر يجعلها تتفقد أدق التفاصيل. فلطالما أحالت حياتي لجحيم لشكوكها، ونظريات مؤامرة تستوطن عقلها الصغير، كانت تمضي وقتا مديدا قلقة، متوجسة، ومرتابة.

أدركت أكثر من مرّة أنّ فيروز، كأن بها تهفو على أحرّ من الجمر اكتشاف سقطتي أو خيانتي . دون عناء عرفت أنّها تراقبني؛ تفتش في ثيابي، أو تراقب هاتفي، وسجل مكالماتي، وتتفقد المراسلات، تتبع أثري على مواقع التواصل، تفضل مجالستي بالشرفة على مشاهدة التلفاز ومتابعة المسلسلات وبرامج الطهي. بدوري لم أجد أفضل من التصنع بمظهر الغبي في التعامل مع أسلوبها الفضّ في المراقبة.

كنت للحظات أحدّق في الفراغ، شاردا كالأبله؛ بينما صوت المعلّق بانفعال يتعالى لفرط حماسه، ومجريات مقابلة من الدوري الإنجليزي ما لبثت، وأن تركت كرة القدم، وأنخرطت في تصفح حسابي بالفيس بوك، لأجدد التطلع في الوجوه، فارتأيت إختلاس نظرة متعالية لوجوه قابعة في الإنتظار تبدو حانقة يائسة.

الصبر فضيلة بإمكان المرء تعلمها من المكاتب، والإدارات. قد يتحمل المرء جوع، وعطش يوم صيام لكن من الصعب أن يمسك أعصابه في دائرة حكومية. كلّ من يريد تعلّم الصبر، واختباره ينصح بشيء اسمه الإنتظار في طابور .

شغلتني فكرة الوظيفة منذ سنين مديدة، بفترة كنّا بها أطفالا حالمون بأحلام وردية، وبمستقبل زاهر، ما زلت أذكر بكثير من التفاصيل في الماض عندما كنّا بفصول المدرسة، وأحيانا في الشارع نأتي بأقلام، وبطاقات ثم نستغرق في كتابة ما يخطر ببالنا من وظائف كمهندس أو مدرس، حارس، أو طيار، أو عامل تنظيف المراحيض حتى، لنضعها في النهاية أرضا، ونخلطها جيدا ثم تمتدّ الأيادي، فيحمل كل منّا ورقة لم يمكن أن يعمله المرء في المستقبل. البعض يشعرون بالإحباط ما إن يلفون أنفسهم نالوا خياراتًا لا ترضي طموحهم. فرضيات؛ بيد أنها تؤلم المرء، أما على أرض الواقع ليس يسيرا تخيل كمّ الإحباط، الحياة

سعي، واجتهاد؛ لكنّ القدر قد يقود المرء، ويدفعه على مضض أن يعمل عملا لا يروقه، ربما عزاء المرء ونحن يافعين وحتى لما كبرنا أننا نرجع الأمر للقرعة ثم للقدر، لِم أمكن من خيارات قد نشتغل بها يوما ما.

الآن أعمل في شغل لم أكن أحبه، ولم أكرهه؛ بل أراه تحصيل حاصل درست، ومضيت بحياتي عاما بعد عام، وشاء لي القدر أن أغدو موظفا في دائرة حكومية بدوام كامل.

لطالما كانوا ينتظرون لوقت مديد في سلسلة بشرية، تلفت انتباه الجميع وغدت دأبا يوميا. أما الآن أضيفت الكراسي فخففت قليلا من قلق وغضب المنتظرين. أواصل لؤمي فأنشغل، أرنو لمنشور مثل بقّال يحسب قطع الفكّة. أمّا أنا كنت غارقا في عدّ استحسان المعجبين من أجل صورة طفل التقطتها قبل فترة، في خرجات تطوعية بنشاطات خيرية مع جمعية نساعد المشردين .

كانت صورة لطفل صغير في حضن والدته يظهر بعينين حزينة تفيض دموع من محجريهما منسابة بجوار أنف صغير نحيف بينما يسيل مخاط اكتسب لونا أخضرا مائلا للاصفرار، وخدان متوردان من البرد، كانت نظرة متعبة لطفل تائه بشيء من الدهشة يبكي بصوت جهوري، يستحيل متقطعا ثمّ مكتوما، أطرافه يابسة تبدو زرقاء للناظرين كما لو أنّهما ليست له، ملمس يداه بارد كثلج، رحت أفركهما، وأنفخهما حتّى تستعيدان قليلا من الدفء.

كنت أشعر ببرد يتسرب لعظامي لمجرد بضع دقائق أمضيتها بعيدا عن دفء المركبة بليلة باردة درجات حرارتها لا تكاد تلامس الخمس درجات بؤساء هم من كانوا يفترشون كرتونا وفراشا رثا، بينما غطائهم بالي يندسون تحته يسندون ظهورهم للجدار، رياض أمين عام جمعية " المنكوب" كان يوزع أكياسا بها بطانيات بينما أنزلت المساعدة الإجتماعية معها كيساً به علب حليب وبسكويت وبيضا مسلوقا، جبنة، خبزا، عصيرا، سمكا معلبا، موزا، تفاحا. بلهفة هرول نحونا صبي مزّق شرنقة التحفظ ثم امتدت أيدي فتية صغار بشغف للطعام بينما المرأة ذات الملابس السوداء التي كانت تتوشح البطانية منتصبة في مكانها تعتنق اللامبالاة كنت أراقب دموعها المنسكبة على خديها فتسارع لمسحهما بكمّ قميصها بينما الشابة اليافعة النحيلة كانت تحمل طفلا وتهزه بينما كان نشيج بكائه يرتفع رويدا؛ رويدا ليكسر سكون الليل، يرافقه بلغم وسعال حتى بدا صدر المسكين يصدر صوتا كمذياع قديم تلف مخرج الأصوات به. تُربت أمه على كتفه في محاولة لتهدئته بينما تردد أغاني شعبية. طفقتا تكيل لنا جملا سريعة لثناء وشكر وامتنان، ثم انفجرتا بالبكاء وهما يلعنان وضعا رمى بهما للضياع والتشرد، بشيء من الحسرة يعترفن بالتحرش من قبل وحوش بشرية يهفون لنهش لحمهن. بعض هدفهم استغلالهم يعرضون مساعدة ظاهرها إنسانية وحقيقتها استغلال جنسي.

عادة ما تشكو النساء المشرّدات من هجوم السكارى، والمجانين واللصوص فيصيبهم شيء من التنمّر، والاعتداءات.

رفض ومكابرة أبدتاه لوهلة، بيد أنه وبشيء من إلحاح لان موقفهما ونلنا ثقتهما، إلا أنها ثقة يشوبها شيء من الحذر. نلوي نقلهما صوب مركز المساعدة في حين كان أحد الفتية يسعل سعالا حادا تلمست جبينه كان يرشح بالحمى في درجة حرارة دنيا، ثم إن ذهابه للمشفى وعرضه على الطبيب كان أمرا ملّحا، لا يستدعي التأخير.

عند وصولنا لمشفى المدينة، بدت لي أروقته هادئة، وشبه خالية إلا من بعض أصحاب المآزر من ممرضين وأطباء مقيمين، أقبلت صوب الصبي الصغير وحملته إلى سرير الكشف، تسلمه الطبيب الشاب وطفق يلاطفه قليلا ثم استغرق في تفحص نبضه، ووضع السماعة الطبية على صدره ثم فتح الطبيب فم الصغير بلطف ووجّه الكشاف لبلعومه. تفحصه للحظات ثم أخبر والدته أنه كان يشك بإصابته بالتهاب رئوي ليقرر بالنهاية نقله لقسم الأطفال رفقة والدته لمزيد من الكشوفات بينما المرأة الثانية رافقتنا للمركز، اغتنمت الفرصة لأصورها وصغارها لا أدري! لِم كنت مستغلا لوضع تعيس لامرأة ثكلى بالبؤس، لقد كنت سيئا بتصرفي الغبي.

***

يشتد الألم بأسفل ظهري تارة ويخف حينا، زرت أطباء كلهم يجمعون أنه عرق النسا وآلامه الرهيبة، ما كان يسبب لي مشقة بالسير .

أطباء آخرون يرجعون الأمر للمكوث لساعات جاثما بالكرسي أعرضني للرطوبة بظهري أتحرك قليلا يصفعني هواء المكيّف فدرجاته منخفضة

بالمكتب بينما في الخارج الحرارة تشوي الوجوه لو تسقط بيضة دجاج على الأسفلت ستطهى سريعا.

مذ أسابيع ما زلت أذكر ما جرى لمسنّ كان يسير بوهن في حرّ شديد تجاوز الباب وسار نحو الكراسي وجلس على إحداها بانتظار دوره في وقت كان المكيف مضبوطا على إيقاع تسعة عشر درجة يبدو الفصل شتاء بالداخل بينما خارج الجدران صيفا حارا، أمضى ثلث ساعة لحين إنهائه المصادقة على أوراقه ثم خرج من الباب. سار خطوات قليلة وقف للحظات في مكانه ثم صرخ بينما كان ممسكا صدره إلى أن سقط أرضا ميتًا. ما جاء بتقرير الطب الشرعي أشار لأزمة قلبية نتجت عنها سكتة قلبية.

العمل بدوام كامل في خمس أيام كان كفيلا لأن أتقرب وأتعرف ببشر برتبة زملاء نثرثر كثيرا، نغتاب بعضنا، نتشاجر، نحزن، نفرح، نلوم، نتألم، نسعد، كأي عمال يجتمعون تحت سقف عمل يجمعهم بدائرة حكومية، لسنين كنت أعمل دون أن أنال ترقية تقلدني منصبًا مرموقا كمدير أو نائب مدير، مفتشا ربما. والحق يقال: أنا عن نفسي لم أسع ولم أبادر للجري وراء الترقيات.

لطالما كانت السجلات الورقية متعبة، مرهقة من تصفحها، والبحث بين طياتها، والسير للأرشيف، وتسلق سلّم والبحث عن سجل، والعودة للمكتب لأجل البحث عن وثيقة. أما مع الرقمنة فقد استبدلت كل تلك

المشاوير بحاسوب، وبكبسة زر، حقا الحاسوب وبرامج البيانات اختصرا الوقت والجهد .

أحيانا أتساءل بيني وبين نفسي لو أنّ هناك وظيفة أدنى بالسلم الوظيفي لتدحرجت صوبها فببساطة كنت لا أجيد ما كان يفعله بعض زملائي، من خبث، ومداهنة فشعارهم "تملق، تتألق، تتسلق."

بالمكتب حيث أمضي وقتي متأففا حانقا من ظروف تعيسة وزملاء حمقى ورؤساء عمل متنمرين، وحدها ملامح باهتة من كانوا في أسفل سلّم البيروقراطية اللعينة تنتظر تسلّم أوراقها مختومة. السؤال عن الراتب عادة ما يأسر ألباب الجميع، كثيراً ما يتردد الحديث عن موعد صب الراتب في الحسابات، الثرثرة عن المردودية والزيادات والعلاوات وعطل الأمومة، العطل السنوية، الغياب، التعويض، التذمر من إقتصاص الراتب، حكايات وحوارات كثيرة كانت وقود يومياتنا رفقة زملاء مجانين.

عادة ما كنت مستغرقا بالتسلية، واللهو ربما انتقاما من أجر زهيد كنت أتقاضاه لقاء عملي فبدل اهتمامي والتركيز في شغلي طفقت أعبث بأعصاب المواطنين وأعطل من إنتاجيتي. لو يفعل الكثير ما كنت أفعل وأحسب أن هناك الكثير ممن يشبهني كنا نسيء لأنفسنا وللمجتمع بتصرفاتنا الحمقاء بتعطيل مصالح الزبائن .

أنهي ورديتي عند الرابعة عصرا، لأسرع مهرولا في عجالة إلى الحظيرة لأستقل سيارتي ألوي المسجد القريب، لأصلي عادة العصر. أما اليوم

فلم أتمكن من أداء الصلاة الظهر بوقتها لذا سأصلي الظهر والعصر تواليا.

في البيت قابلني وجه فيروز البارد، وجه لا يحمل بهجة عادة. لست أدري ماذا تريد؟؛ بيد أنّها لمّا باشرت كلامها بشيء من المصوغات أدركت أن طلبها لن يبتعد عن دائرة المال، ببساطة تحسبني ثريا بيد أنّها؛ ما كانت لتدرك أنّني أفقر من أن ألبي طلبها. كانت كعادتها استغلالية تتغابى فحسب، فما تجنيه من روضة الأطفال في شهر لا أجنيه أنا بأشهر، كانت فيروز راغبة في شراء هديّة لأختها التي تستعدّ لحفل زفافها من جيبي فحسب، يا لها من انتهازية تعتنق البخل مذهبًا في حياتها.

صرفتها بتجاهلي ومشيت إلى غرفتي، وقلت: لا، بيني وبين نفسي فلتجرب فيروز الحياة بطعم لا، مع إجابتي تلك بدت غاضبة من رفضي لكن ما كنت لأكترث بها، ما كدت أخطو قليلا حتى انقضّت أصوات ولداي تتلو رغباتًا بهاتف جديد لسامر وملابسًا لسارة، أغلقت على نفسي باب غرفتي، غيرت ملابسي وارتميت بسريري لأرتاح قليلا .

مضت نصف ساعة ثم طفق رنين الهاتف يكسر هدوء الغرفة، حملت الهاتف وتفحصت الشاشة لم يكن إلا رئيس العمل المنزعج، كان يطلبني بغضب لهروبي الماكر من العمل أذكر لحظة طلبه منّي الحضور لمكتبه في منتصف النهار مشيرًا لي بيده حالما تنتهي ساعات الدوام حينها قلت في نفسي: لِم، لم يستدعين لحظتها؟ كان سيأخذ من وقتي

الثمين باجتماعه في وقت كنت بأمسّ الحاجة للخروج بعد ساعات متعبة، تجاهلته وغادرت دون أن أعرّج على مكتبه.

ارتديت ملابسي بعجالة، ثم هرولت مسرعا أصم أذناي لضجيج أصوات زوجة بنكد طافح وولدان يبدوان كصيصان دجاج خبطت الباب من ورائي ونزلت السلالم وصلت بسرعة لمخرج العمارة بينما كنت أهمّ لأجتاز الطريق ومصوبا عيني للمركبة وضعت يدي في جيب سترتي لأخرج مفاتيحها، كان صوت المكابح أسرع... ثم وميض، وسماء زرقاء... تطايرت كدبوس خشبي رمته كرة بولينج، غرقت في الظلام.

لا أدري ! كم مضى من وقت قبل أن أفتح جفناي، كنت أراني مستلقيا بغرفة بيضاء بها أسرة، وحشرجة أناس مستلقون، يضاف لها رائحة الأدوية والمنظفات فأدركت أنّها غرفة بالمشفى. أدرت رأسي قليلا لمحت مصلا معلقا إلى جواري يخترق يدي، وبي شعور بوخز وألما بساقي.

الصالة بها أربع مرضى، الشاب الذي إلى جواري كان اسمه سامح، لقد كان مصابا في رقبته يضع مقوم الرقبة، وكسرا برجله يغطيه الجبس إلى أعلى ركبته. كنت قد انتبهت له حين أدار جسمه كله يطلب مساعدته بجلب القليل من الماء، رغبت في مساعدته بيد أني كنت مخدرا قليلا وما أزال أشعر بدوار، كبس زر المناداة ظل يصرخ لبضع الوقت دون أن يلقى جوابا لطلبه.

إلى جواري شاب اسمه "زياد" إصابته أقلنا سوء، كان يستعد لاستخراج ماسك حديدي من ساقه، أقبل صوب سالم فناوله قارورة الماء .

بينما في الطرف الآخر كان هناك كهلا وظيفته طغت على اسمه يكنّى بالأستاذ مستلق بلا اكتراث يحدّق في الفراغ. الأستاذ كان مؤرخا وباحثا في التاريخ. علمت أنّه كان في بعثة استكشافية، وأصيب في حادثة سقوط جدران وأتربة بموقع أثري جنوب الولاية حيث كان يشتغل باكتشافات جديدة على مايبدو فغمرته الصخور والأتربة لينجو بأعجوبة ويصاب بكسور في ساقيه. الحال السيئ الذي بدا عليه جعله عاجزًا عن فعل أبسط الأشياء. ما يحزّ في نفسه شعوره بالإحراج من عدم قدرته على قضاء حاجته كما جرت العادة للأصحاء.

أصيب سالم جرّاء إعتداء جار له، كان غاضبًا من تصرف أحمق بدر منه. قال ذات مساء بعد أن خلد الأستاذ للنوم وهناك من انشغل يعبث بهاتفه أو فضل مشاهدة التلفاز: " صادفت شيخًا ضريرًا يمدّ يده سائلاً المارّة، فما كان إلّا استللت هاتفي ووضعت قطعتان من فئة عشرين دينار بين يديه والتقطت صورة للذكرى، وضعت الصورة في الفيس بوك بعنوان تصدقوا فإن الصدقة تذهب البلاء، مستمتعا أرشف من قدح الشاي، مستغرقا أحسب التعليقات واستحسان الأهل والخلّان، انتبهت للإشعار، كان تعليقًا من صديق وعبارة "أ مجنون أنت ؟."

تفحصت التعليقات، وقرأت تعليقه لم أبال به أراه سخيفا، مضت دقائق قبل أن يهتز الباب بعنف، كنت وحيدًا يومها بالبيت فأسرتي الصغيرة

الزوجة والإبنة كانتا في زيارة لبيت الجدّ ، فتحت الباب، وليتني لم أفعل... لقد ألفيت الجار أستاذ الرياضيات المقيم في الطابق الأرضي من العمارة كان يستشيط غيضا، ما أذكره أنه استقبلني بوجه متجهم كان مرتديا مئزرا أبيضا وحاملا بين يديه محفظة جلدية .

لم يلبث أن هوى على جسدي بعصاه. كان نصيبي وفير من كدمات وإصابات، وها أنا الآن أجدني مستلقيا بسرير المشفى نادما على ما صنعته من رياء، ولأن الشيخ والده كان اعتدائه عليّ مبررا في نظر المتعاطفين معه.

رتيبة هي أيام المشفى ومملة، لا شيء نفعله إلا الانتظار أو "نربي الأمل" كما قال الشاعر الفلسطيني محمود درويش.

الاستيقاظ باكرا، قضاء الحاجة، الوضوء، التيمم لمن يملك عذرا من ملامسة الماء للوضوء وأداء الصلاة، تناول الفطور، كشف الطبيب، مشاهدة التلفاز، مغافلة الممرضين للتجول بين عنابر المشفى، الخروج للحديقة، الحديث عن المرض والألم، وقت الغداء، القيلولة، الصلوات، مشاهدة التلفاز، زيارات، إزعاج، صراخ المرضى، المساء وأحاديث مع سالم وأستاذ التاريخ، ثم نخلد للنوم لننهض مع يوم جديد رتيب.

لا نملك في المشفى إلا الوقت؛ وقت يمضي بطيئا كسلحفاة في مضمار سباق بينما الحكايات والمسامرات ما كانت تخفف قليلا من آلامنا، لو كان رفاقي بصحة تسمح لهم بلعب الدومينو لألفيت حيلة لنلعب في صالة المشفى أو الحديقة، في الأماسي كنا نحدق تارة في شاشة

التلفاز وأحيانا ننخرط في المشاركة بسرد حكايات لننسى قليلا الآلام، ونحارب قليلا الملل والضجر.

ذات مساء لمحت زياد يفكر شارداً سألته بم تفكر؟ تنهد عميقا ثم قال: "لا شيء."

أشاح بوجهه مقابلا الجدار متظاهرا بالنوم، لم يشأ الفضفضة ربما كان كتوما لا يحب الحديث عن نفسه والنبش في تفاصيل حياته للآخرين.

وجهت بوصلة الفضول نحو الاستاذ، فكّرت في حيلة من أجل أن أشجعه ليفضفض فاهتديت لأن أقول له: أستاذ تبدو حزينا من نظراتك، الحزن يا أستاذ يرتسم في الملامح ومهما اجتهد المرء في مدارته إلا أن سواده يغشى القلب والروح ويتجلى أحيانا في السلوك. نظر صوبي بشيء من اللامبالاة، ولم يجب على سؤالي، وظلّ صامتاً.

مضى يومان دون أن أطلب منه ذلك وكمن يسكب بؤسه وشجونه في لحظة هدوء راح ينبش في ماضيه ليسترجع أحداثا مضى زمانها فاستهل حديثه بذكرياته لمّا كان يقيم بدار الأيتام تذكّر كوب الحليب البلاستيكي، اللباس الموحد، والأسرة المعدنية المصفوفة، وتسريحة الشعر المشتركة.

بشيء من المرارة يستذكر يتمه بسبب فرنسا التي قتلت والده في العام الخامس للثورة. كان والده رجلا وطنيا لم يحمل السلاح في يده بيد أنّه حمله في قلبه كان مسبلا أي من أولئك الذين يقدمون دعما

لوجستيا كجمع المال ونقل الأخبار والرسائل، وشراء المؤن، وتغطية تحركات المجاهدين، ارتاب له جيش فرنسا فروقب لفترة قبل أن يقع بين يدي ضباطها بينما كان يحمل وثائقا ورطته مع المجاهدين فاعتقل من قبل الجنود المظليين مع أمه وعذب حتى فاضت روحه.

قال: أمي لقيت المصير نفسه لم تتحمل التعذيب والاستنطاق، بقيت وحيدا فوالدي لم يعيشا لينجبا طفلا آخرا كما أنهما لم ينجبا قبل أن أولد، لقد كنت وحيدهما، راحت تقاذفتن الأيدي بين الجيران إلى أن أودعت دارا للأيتام. أيّ طفولة شقية عشتها؟، وحده الحرمان ما خبرته، مضت السنين ووجدتني أركز كل جهدي نحو الدراسة، ثم عشت مع عائلة كفلتني سنة إلى أن هربت من البيت وغدوت مشرداً بالشوارع ثم ألفيت دار الأيتام مجددا تفتح لي أحضانها رغم وحشتها إلا أنني ألفت جدرانها فأنا لم أطق العيش بعيدا عن الملجأ .

مضت الأيام والشهور والسنين وعندما حلّ موعد مغادرة الملجأ، ولأخفف من وقع الحدث كنت أفضل أن أطلق عبارة يوم التخرج من الملجأ، يوم خروج، يوم رحيل، بيد أنّه يبقى يوم الطرد فحين يبلغ الشاب الثامنة عشر لا موطئ له بالملجأ، ما كنت لأكترث للأمر لطالما كنت أرى الفتيان يغادرون دوريا، أراني فتًا لم يغرف من نهر العاطفة عشت دون عطف أب ولا حنان أُم؛ بل عرفت القسوة وسوء الطالع، وسوء معاملة استحالت لا حدث في يومياتي، ما كنت لأنكر حزني مثل طائر صغير يرمى من العش ليواجه المجهول. وجدتني مشردا، عملت

بمطعم غاسلا للصحون في المساء، وبالصباح أدرس بالثانوية، وحالما نلت الباكالوريا في محاولتي الثانية كنت قد وجدت إقامة تنتشلني من الضياع. درست وفزت بوظيفة بزمن كان تحصيل وظيفة يسيرا .

ما إن استرجع ما مرّ بي حتى أسرع محاولا إغراق الذكريات في محيط النسيان. زوجتي تعرفت بها في الجامعة كانت أول امرأة أنجذب لها وأنخرط معها في لعبة الرسائل وأبيات الشعر ككل عاشق يتمنى أن يصبح شاعرا ولو للحظات حتى يجيد الغزل والإطراء ودّه لو نظّم دواوينا في محبوبته، علاقتنا مرّت للجدية، وأثمرت بزواج سريع بينما كنا ما نزال على مقاعد الدراسة.

كنت أشبه بفتى يشيّد قصرا من رمال على شاطئ البحر ليأتي المدّ ليعبث به وبأحلامه ويكسر نفسه، ووالد سعاد كاد يئد حلمنا برفضه زواجنا، بيد أننا تزوجنا رغما عن أنفه زواجنا كان يبدو خطأ، رفض حين أدرك أنّي كنت نزيل دار الأيتام. سحقا له، لم يغفر لي يتمي، وكأن به يحسبني "لقيطا"...

ظل الأستاذ يفرغ ما في قلبه حتّى شعر بالتعب والنعاس فراح يتثاءب، معتذرا متمنيا ليلة سعيدة للجميع استدار على جنبه صامتا في حين طفقت أقلب حديثه برأسي. الحزن كالعدوى. فانخرطت في اجترار بعض ذكريات طفولتي لم أكن من أولئك البشر من يحنون للماض. لا أحمل بجعبتي إلا ذكرياتًا حزينة ملؤها البؤس والفقر عشت بقرية نائية أدرس صباحا وأرعى الماشية مساء، وبأيام العطل، النوم كان بعد

صلاة العشاء، وفي كثير من الأحيان قد أسهر حتى العاشرة لأجل أن أستمع لحكايات الجدة المشوقة. أما الراحة فأراها كفاكهة لكوني كنت مرهقا من طفولتي الشقية ولا وقت فراغ أمارس فيه طفولتي مثل الأولاد الآخرين، وأسوء ما قد يمرّ به المرء هو أن يعيش طفولة شقيّة محروما من أشياء كثيرة، يكبر بيد أنه تبقى تحزّ في نفسه طفولته المهدورة. كنت في العادة أستمع لما يبثه الراديو من برامج على أثير الهواء، ثم ابتاع والدي تلفازا نتحلق من أمامه ونحن ندس أنفسنا بغطاء الحنبل الأبيض الذي تتخلله شيء من الألوان لأشكال بسيطة حاكته أمي بالنسيج المنزلي التقليدي... هكذا ألفيتني قد استرجعت بعضًا من الذكريات وغصت بها حتى أسلمت جفناي للنوم .

بالمشفى حكايات الأستاذ كانت ممتعة بحق، فما إن ينخرط في الحديث عن التاريخ وماضي الشعوب والأمم حتى نسرح بخيالنا ونرسم مشاهدا متخيلة عن ذلك الماض. الأستاذ كان قد أخبرني أنه يقوم بكتابة بحث عن تاريخ المنطقة. وما عاشته من فتوحات وحروب الرومان والإحتلال الفرنسي كنت متشوقا للاستماع لقصص وحكايات تاريخية عن ماضينا، ذات ليلة وبإلحاحنا وتشجيعنا فتح محفظة بنية، أخرج أوراقا تناول نظارته، أسند ظهره بوسادة ورفع قليلا السرير إلى الأمام وراح يحدثنا في حديث يطول أشبه بمحاضرة تاريخية، عن تاريخ المنطقة منذ قبل إحتلال الرومان، مرورا إلى التاريخ الإسلامي للمنطقة وصولا بالوجود

العثماني والإحتلال الفرنسي والثورات الشعبية أجزم أنه ما إن أنهى سرده كان الجميع يغطّ في نوم عميق.

مضت أيام قرر الطبيب المعالج أخيرا تسريحي، كنت سعيدا وأنا أجمع حاجياتي مغادرا ألوي بيتي، ضرب لي الطبيب موعدا دوريا للكشف والمتابعة حتى أنزع الجبيرة، ودعت الأستاذ كما عهدته ما يزال يحدق في الفراغ تائها شاردا، غادر أيضا سالم لبيته بعد فترة وجيزة .

كنت في البيت أمضي فترة نقاهة لحين موعد تحسن حالي، وأمكنني السير مجددا. فيروز تغادر في الصباح لعملها يرافقها سامر وسارة لمدرستيهما وأظل أنا وحيدا أتسكع بالبيت بين التلفاز وحاسوبي والشرفة، واستقبال الزوار، من عربة المقعدين كنت قليل الصبر أشعر بالملل، يكاد رأسي ينفجر لرؤيتي مقعدا لا أملك من أمري شيئا أعدّ الدقائق والساعات لقد اعتدت على الضجيج والتجمعات كل يوم في الدوام والآن بين جدران البيت حيث الصمت مطبق تكسره دقات ساعة الجدار، طنين الذباب، يصل أسماعي أصوات الأطفال المزعجون بينما آيبون من مدارسهم، أنصت من حين لآخر لأصوات مواء القطط، نباح الكلاب، أجراس منبهات المركبات، صوت مشية صاعدي السلّم. لقد كانت فترة قضيتها وجدتني أشحذ حاسة سمعي وأنصت لديكور يؤثث حياة المرء والمجتمع. كانت أوقاتا مملّة، وكدت أجنّ لو لم أعد سريعا لدوامي.

ها أنا ذا بالكاد أعيد ترتيب فصول حياتي المبعثرة أحاول أن أنخرط فيما اعتدت فعله طيلة سنين قضيتها بين زواج وعمل وأبناء متطلبون يبحثون على الرفاهية فحسب لا أدري لم يحسب الأطفال أن الأب يجب أن يكون مثل جني المصباح السحري يحقق كل الأحلام والأماني في لمح البصر؟.

أعترف أنّي كنت متذمرا من طلباتهم؛ منزعجا أيضا من والدتهم الجاحدة التي لم تكن لتبدي استعدادها لمشاركتي الهموم والمشاكل؛ بل كانت جزء من العقبات بلا مبالاتها.

طرق الموت روح العمّة "بهية"، فرحلت بهدوء ذات مساء قاطعة التذكرة إلى العالم الآخر. أقيم العزاء ببيت شقيقتها "مريم"، ودفنت بمقبرة القرية. مساءً كان شيوخ القرية وإمام الجامع قد اجتمعوا لتقسيم تركتها، لورثة هم فقط أشقائي والعمة مريم.

كوخ وأربع دجاجات، وشيء من المال كان كلّ ما تملكه العمّة من معاش الشيخوخة، بضع أرانب، وحمار، وعنزة لها جدي الحصيلة الإضافية ما كان بانتظارنا لنقتسمه، حين علم أشقائي بأمر التركة تنازلوا جميعا للعمّة مريم، أنا بدوري فعلت.

بينما كنت أهم بالمغادرة لحق بي شيخ القرية والعمة ليطلبا بشيء من التودد المساعدة بنقل الحمار المريض للبيطري. متحججين بغياب بيطري بالقرية ولا يزورها البياطرة إلا دوريا وقد تطول المدة.

نال الحمار الاستعطاف ودموع عمتي وصغيرتي، كانت تصفيقات حارة من الحضور لإنسانيتي التي ستساهم بإنقاذ حيوان مريض، قلت: نعم تحت ضغوط تشعّ إنسانية.

مع ساعات الصباح الباكر كان الحمار في عهدة البيطري، الكشف أكدّ أنه كان يشكو من ألم بمعدته المنتفخة التي تحسسها بيده جيدا فتلمس أجساما غريبة لم تهضم. كان ممتلئا حسب شك البيطري مرجعًا السبب

إلى التهامه أكياس البلاستيك التي لا تتحلل إلا بعد زمن مديد، لا يتحلل البلاستيك إلا بعد مئات السنين. البلاستيك سيء على النظام البيئي؛ ملوث للبحار والمحيطات ويسبب الأذى للمخلوقات على كوكب الأرض. كانت تلك الأجسام والمواد تسبب له آلاما مبرحة، علمت من العمة أيضا أن الحمار في الآونة الأخيرة كان يأكل قليلا ليحس بالشبع، سارع مساعد البيطري لتجهيز غرفة العمليات خدره سريعا بحقنة ثم طفق الطبيب البيطري يشق بطنه حيث نزع له الأكياس في فترة وجيزة وأعاد تقطيب الجراح، ترك ليرتاح بينما غادرت العيادة لأسحب ثمن العملية من حسابي البنكي.

مضت فترة كافية شفيت فيها جراح الحمار، وكنت قد قررت إعادته للقرية. حملته بشاحنة صديق للعمة التي بلا شك ستكون فرحة عند رؤيته ثانية، بيد أنه ما إن وضعت يدها لتمسح على رأسه بلطف حتى باغتها بمؤخرة قدمه فرماها أرضا.

هبّ سكان القرية أفواجًا وزرافاتًا يلوون النيل منه فامتدت العصي بضربه فراح يئن بنهيق أشبه بالبكاء.

لحسن عاقبة العمّة أصيبت بكدمات وجروح طفيفة، بيد أنّه أوغل صدرها نحوه، غدت تكن له الكره وتلعنه؛ ورفضت بالنهاية أن يبقى معها كما رفضه بقية أهل القرية مخافة هجومه الأرعن. بعض كانوا مرتابين في جنونه أو إصابته بالسعار حتّى، كل الأعين صوبت إليّ...

بعيداً عن القرية أنزلته من الشاحنة، من مقعدي بقيت للحظات أتطلّع نحوه بينما كان قد حنى رأسه وطفِق يلتقط البرسيم من على حافة الطريق. واصلت رحلتي. لا أنكر ترددي لوهلة بل حزّ في نفسي تركه، قلت في نفسي: ربما يصادفه مزارعا ما ويستعين به في مزرعته، إلّا أن طوال مسافة الطريق طفقت تداهمني وساوس، وتشغلني فكرة إمساكه من قبل جزارين لا يخافون الله سيذبحونه ويبيعونه في القصبات على أساس أنه لحم عجل أو حصان، فالعالم مليء بالأوغاد.

وصلت بوقت متأخر تجاوزت العاشرة ليلا للمدينة ألفيت الشوارع هادئة، قليلة هي السيارات والمارة، وبدورها المحال مغلقة، ركنت المركبة بحظيرة الحي، ثم سرت إلى البيت لا أدري! إن نام الجميع. أدرت المفتاح في القفل تسللت إلى الغرفة. فيروز نائمة أخذت مكاني بينما لا شيء ببالي إلا إنزياح همومي، نمت كما لم أنم من قبل.

استيقظت عند التاسعة صباحا مدركًا أن التأخر على الدوام يثير غضب مديري، بعجالة هرولت مسرعا، نزلت من الشقة. بالشارع بينما أستعد لأشغل محرك السيارة لمحت الحمار ينكش مكبّ النفايات بحثا عن طعام في حين كان يصدر نهيقا حادا يؤكد انزعاجه لمّا تحلّق أمامه الصبية يناكفونه، أمسكت رأسي بيدي لست مصدق كيف وصل به الأمر إلى هنا؟ سؤالا ثان يتدافع برأسي ماذا عساي أن أفعل ؟.

في لحظات صاخبة راح الصبية يضربونه بعصي، حملت ما أمكنني من الحجارة وصرفتهم وأنا أهرول كالمجنون ثم انتظرت لبضع الوقت حرصا على مغادرة الصبية لئلا يعودوا لمناكفته مرة ثانية، فكرت مديدا

أين يقيم؟ فالحمار ليس كلبا أو خروفا، ولن يكون في مقدوري حمله بسيارة صغيرة حتّى، حجمه الكبير يمنعني من التصرف بيسر، أشار جار لي بحديقة الحي، سقته إلى هناك وربطته بجذع شجرة إلى حين.

أسرعت لعملي كالمجنون بينما الساعة تشير للعاشرة والربع، لمحت طابورا من أمام كوة وحيدة تعمل بها زميلة بينما كانت تصرخ في الوجوه الشاحبة، بدت كثور هائج، جلست بمقعدي طلبت من الطابور التقدم إلى مكتبي فانقسموا مهرولين وتغير ترتيب الطابور فارتفعت الأصوات وضج بهو المكتب بالفوضى أطل المدير العام برأسه وراح يسأل سبب الجلبة، ثم لمحني بطرف عينه فأشار لي بيده، وإلى الساعة في معصمه ليضرب لي موعدا بعد الدوام لمكتبه.

كان أهل الحي يرددون أنّ الحصيلة جريحان وقعا ضحية للحمار. قيل أنّ الحمار مشى يلوي عربة طفل بالحي وإلى جوارها بقالة من خضروات بينما كانت والدته تُحمّل جزء من البقالة بالسيارة. ليستغرق الحمار في التهام خضار البقالة، لمحته الأم فانفجرت صارخة وراحت تضربه بحقيبتها فاندفعت عربة الرضيع بعيدا ومعه إرتفع بكاء الصبي، شعر الحمار بالاضطراب فلكز المرأة ثم لكز صبيا آخرا كان في الجوار.

كتبت جريدة عنوانا على واجهتها لمحته صباحا من على رفوف كشك قريب " حمار هائج يصيب سيدة وصبيا ".

استنفار وترقب شهده الحي قبل الإمساك بالحمار ونقله لمحشر البلدية حيث سيارات ومركبات محجوزة إضافة لفضاء مخصص لقطعان

الماشية، وكلاب لطالما كانت ترهب المارة أو يشارك بها أصحابها في عمليات إجرامية، قررت السلطات إعدامه وتقديمه وجبة لضواري حديقة المدينة بعد الكشف عن لحمه طبعاً إن كان صالحا لاستهلاك نزلاء الحديقة من نمور وأسود. كما دفعت غرامة مالية.

مضى شهر على حادثة الحمار، كانت أغلب ليالي أمضيها بأرق حاد. أحيانا أرنو لعقارب الساعة أراها تشير تارة للثانية صباحا، وطورا تتجاوز الثالثة بدقائق، وحينا الرابعة، وها أنا ذا ما أزال مستيقظا، غيرت محل نومي ذات فجر ففردت جسمي على الأريكة، تقلبت مثل طفل مشاكس، حاولت أن أقلد أفلام الكرتون بشيء من المزاح بعدّ الخراف فوجدت في خراف جدّي في الماض أنموذجا، بينما أعتقد أن حكاية عدّ الخراف تلك يكمن سرّها في التعب والارهاق والانشغال بشيء ما بدل الوساوس والأفكار التي تداهم المرء فعندما يعمد المرء إلى العدّ سيشغل نفسه ويحررها من طاقات سلبية، لذا فإن الدافع من وراء عملية العدّ نفسي بالدرجة الأولى.

لطالما كنت أجتهد صغيرا في عدّ خراف جدي حينما كنت برفقته آيبين كل مساء من المراعي، أعد بيد وبد تمسك بناي لا يغيب عن تنقلاتي كنت أعزف به كثيرا مستمتعا بألحانه الشجية.

نمت قليلا ثم استيقظت صارخا كالمجنون ألهث مبللا بعرق كثيف، بينما فيروز من الغرفة أطلت برأسها َترتعِد فزعِة على وقع صراخي، كبست

زر الإنارة، ترنو لي بصمت، دنت منّي سرعان ما وضعت سبابتي على فمها وأشرت لها بالبقاء صامتة.

مع شروق شمس صباح جديد، إنسحبت من الأريكة بتململ وألم بظهري وكتفي ورقبتي من نوم سيئ. بحثت عن فرشاة أسناني والمعجون فلم ألفيهما فطفقت ساكبا قاموسي الذي يضم شتائماً وسباباً لاعنا كل من مرّ ببالي.

هدأت فقط حين ناولتني فيروز أشيائي فأخذت حماما على السريع، ثم نشفت جسدي وارتديت ملابسي وبينما أهم بتسريح شعري أمام المرآة نظرت لانعكاس صورتي، وإلى الجوار نافذة الحمام المفتوحة، لمحت عامل إعلانات يلصق إعلانا تجاريا، وعينيه تحدقان للنافذة، فأكرمته أيّما كرم عبر حصة نالها من الشتائم.

تعالى صراخ وضجيج مزعج لصبية في رواق العمارة اندفعت للاستكشاف ما يحدث خارجا، فألفيت صبية متحلقون كعادتهم يتلصصون من ثقب الباب على ياسمين، سمعت بدورها ما كان يحدث من ضجيج وجلبة أسرعت بفتح الباب فألفتهم وهم يقفون من أمام الباب فاستشاطت غيضا، رمتهم بكلمات نابية، استللت نعالي وطفقت أركض خلفهم فلم يتوانوا بإطلاق سيقانهم للريح. كنت في إثرهم بثياب النوم وصراخي يتعالى في وجوههم، المارة يحدقون بي باستغراب البعض أطلق العنان للسخرية والضحك؟ يتردد سؤال: هل أصاب الرجل عقله لوثة؟. هدأت نفسي فحسب عندما ابتعدوا ثم قفلت عائدا.

مضى يوم آخر رتيب لموظف دوامه لا بهجة فيه، مساء ما إن رجعت للبيت حتى رميتني إلى السرير وأطفأت النور حاولت النوم ولكن هيهات، من غرفة الاستقبال آثرت الإرتماء على الأريكة أشاهد التلفاز، شريط وثائقي ما اخترت مشاهدته لكن هالني منظر سباع ملتفة تنهش عنق ريم، كبست الزر مغيّرا المحطة، ثم توقفت عند مشهد رجل يرتدي هيئة لغوريلا مختبئ بين الأشجار يرعب المارة. أطفأت التلفاز وببالي التجول في المدينة، دقائق كالمجنون كنت أذرع شوارع المدينة بلا هدف سرت بتؤدة في رصيف الحي، مرّت سيّارة بسرعة رمى سائقها علبة بها بقايا سائل فلطخت قميصي، رائحة لم تكن سوى جعة. هرولت نحوه لكن بلا جدوى لقد انطلق كالسهم كنت أمني نفسي لو ظفرت به، تمنيت لو أوقفت السيارة وأمسكته كالجرذ وتلذذت بتنفيس غضبي أو حتى حطمت سيارته بالحجارة. دنوت من عين جارية بالحديقة فشظفت القميص من الجعة مع بقاء قليل من الرائحة التي ما زلت أشمها بأنفي ربما أبدو لكل من يدنو مني لست إلا شاربا للمسكرات وربما خرجت من حانة قريبة بينما تفوح مني رائحة الكحول، انتبهت لوجود ورود بحديقة بيت مجاورة كانت ورودا في الحقيقة ليست من صنوف يفوح عبيرها لكنها ربما تفي بالغرض فمسحت بها على القميص حتى أخفي رائحة الجعة.

لست أدري! أين تقودني قدماي في لحظات كنت تائهًا، مضى الوقت إلى أن وجدتني بالمقهى جلست إلى طاولة بها كرسي وحيد. طلبت فنجان قهوة شربته بعجالة ثم قفلت عائدا لبيتي أدرت المفتاح في

القفل أشعلت الضوء بعد أن غيرت ملابسي تسللت إلى لفراشي، أحطت ذراعي تحت رأسي لبضع الوقت شاردا محدقا إلى سقف الغرفة، مغريا النوم ليزور جفناي.

أفقت صباحا بينما الشمس في كبد السماء كعادتي كنت متأخرا، بينما كانت تحضيرات فيروز للخروج من البيت تثير حنقي باستغراقها وقتا مديدا ترسم لوحة عبثية بتسريحاتها الغريبة وألوان ماكياج تلون بها وجهها... لا أدري! إن كان وسواسا قهريا ما أصابها اليوم بين اختيار الهندام والوقوف أمام المرآة وإغلاق الأبواب والتثبت من الشرفة ثم تفقد صنبور المياه والتطلع إلى عداد الكهرباء لا أظن أنها أغفلت شيئا.

في نهاية الأسبوع كان الطقس ماطرا بيد أنّها تصرّ على الخروج لزيارة شقيقتها بدائرة القنطرة لا أدري! كيف يتجول المرء في طقس سيئ، توقفت بمحطة خدمات لملأ خزان الوقود. بينما كنت أسمعها تثرثر مع صغيريها، طوال مسافة المسير لم تترك موضوعا غير مطروق تنتقل بين المواضيع كعازف على البيانو يمرر أصابعه على اللوح منتقلا بين النوتات، كدت كثيرا من المرات أن أفقد أعصابي، وأركن السيارة وأتركها بالطريق أو أتركني أنا. سارة وسامر لا يأبهان بأمرنا كانا يلهوان بهاتفيهما بينما فيروز كأسطوانة موسيقى. المرأة الثرثارة أمر سيء.

انتهت نصف الرحلة عند باب بيت شقيقها ثم انتقلنا لعيادة أختها لتصرّ في الأخير على المبيت كانت تبدي شوقها لخالتها وعماتها، وصديقاتها بيد أن الزيارة كانت خفيفة.

رفضت، وبشدة، إلا أن فيروز كانت حانقة تشعر بمرارة ونحن نخوض رحلة العودة للبيت، تصرفي نابع على النساء طاعة أزواجهم، وعلى الرجال أحيانا إظهار الكبرياء وممارسة سطوتهم يجب أن يقولوا لا من حين لآخر بلا سبب، على الزوجات أحيانًا أن يجربن الحياة بطعم لا، حقيقة لا كانت وصفة صحيّة للرجولة في جانبها الإجتماعي.

صمت وتجهم فيروز كسره إلحاحها بالتوقف عند الآثار الرومانية بالمنطقة. بينما كان الجو ماطرا، نلنا نصيبنا من صيّب غزير كان يهطل، ثمّ إصرارها على التقاط صور لتضيفها لألبوم صورها مع صديقاتها في الفيس بوك أي امرأة هي لا أدري! لِم؟ أتحمل غبائها أحيانا!. تشغل بالي فكرة لو انفصلنا وارتحت من مناكفتها أو هجرتها وتركت البيت.

يبدو لي الزواج مثل مباراة كرة قدم فريقان هما زوجان يعيشان حياتهما يحاولان تسجيل أهداف على بعضهما بعض بالسيطرة على الكرة يقابله فرض كلّ طرف سطوته.

قفزت لذهنها فكرة التوقف ثانية، برغبة في التبضع من باعة الرصيف المنتشرين على جانبي الطريق في دائرة "لوطاية"، أنفقت نصف ساعة أو أكثر في تقليب السلع والمفاوضة بينما أنا أهدئ روع بائع كان قد تحامل وكاد يتشاجر معها عندما تنهد ثم قال: الله يعينك يا صاحبي؟ فانفجرت بوجهه طافحة بمبادئ حركات التحرر النسوي الفيمنيست أو مثل ما يُتهم عادة كل من ينكِر محرقة الهولوكوست ويلصق به تهمة معاداة السامية. فيروز ألفت ضالتها في ترديد جمل عن معاداة المرأة وثرثرة لم أملك أن أفعل شيئا إيزاءها.

كنت حقا مشفقا لحالي أكثر من البائع؛ لأنها عنيدة بقدر يجعلها مجنونة، يا إلهي ماذا أفعل مع لسانها السليط ؟.

لم أنتبه للهاتف بينما كان يرنّ لفرط الضوضاء عدد المكالمات يتجاوز الثمانية أعدت الاتصال بالرقم، صاحبه لم يكن إلا جارًا لنا بالكاد حملت السماعة حتى انفجر بوجهي" بيتك يحترق"... خبر الحريق كان يدفعني إلى زيادة السرعة بينما الأسفلت مبللا... في أقل من ساعة كنت قد وصلت لـ "حي العالية " حيث أقيم، ألفيت بيتي يتشح بالسواد، الحريق كان كبيرا، خبت ألسنة النيران بالبيت ولم تخبت النيران بقلبي، إعادة إعمار البيت وتهيئته بحاجة إلى مبالغ مالية كبيرة.

لِم احترق البيت؟ أكثر الأسئلة التي تداهم أي ضحية لحريق ما، اعتمدت على مساعدة فنيي الكهرباء والغاز بحثا عن مصدر الحريق بيد أن لا أثر لماس كهربائي حتى نعلق به شماعة الحريق العداد كان مفصولاً والأدهى والأمرّ أن الكهرباء انقطعت عن الحيّ قبل الحريق بنصف ساعة بسبب الأمطار الغزيرة، كان ظلامًا دامسًا بالحي ولم يعد التيار إلا في حدود العاشرة مساء أي بعد الحريق بوقت مديد.

بينما سرت شائعة من على ألسن الأطفال أن بعضًا منهم كان يلهو بالألعاب النارية وكان قد رمى فتى طائش شيئا من الشماريخ "فيميجان" إلى نافذة البيت نستها فيروز مفتوحة ما أدى إلى نشوب الحريق، بيد أني لم أتمكن من معرفته رغم سعي الحثيث لفترة، وأنا استجوب أطفال الحي، استعملت الترغيب والترهيب بيد أنّها لم تجدي نفعا أمام صمتهم فالوشاية صفة ذميمة لا يفكر الأطفال في تجريبها

لأنه سيظل لصيقا بالفاعل لفظ الواشي أبد الدهر ويغدوا مع فعلته تلك منبوذا .

ألقت فيروز بفكرة السكن بالروضة مؤقتا بغرفتان شاغرتان إلى حين العودة للبيت.

الإنتقال وترتيب حياة المرء هي مسألة تأقلم بالدرجة الأولى، كما أنه ليس يسيرا البحث عن عمال وابتياع مستلزمات ورمي القطع التالفة التي استحالت لقطع فحم، والتنظيف وطلاء الجدران، وتغيير نظام الكهرباء والغاز، وشراء مفروشات يتطلب تنسيقا كما أنه قضى على مدخراتنا المالية، في حين حددّ العمال فترة شهران لإعادة تهيئة البيت.

مضت الأيام بتململ وتذمر وترقب حتى انتهت أعمال الصيانة ومعها كان البيت يبدو جديدا حقا، عدنا للبيت وما زال سبب الحريق مجهولا كل يوم يرنّ كجرس برأسي؛ بل أكثر الأسئلة إلحاحًا في يقظتي، لقد استحال هاجسا يسكنني.

أما أكثر الكوابيس إزعاجا كانت رؤيتي طفلا ينتحب ضاربا على باب الغرفة ثم يختفي لأستيقظ فزعا مرعوبا. كما يتراءى لي كابوس آخر يؤثثه فتى لوحة الطفل الباكي الذي يركض في أرجاء البيت بينما كان يلهو مع قط سارة.

ما أثار جنوني أيضا أني أدركت أنّ اللوحة بالكاد لمستها النيران؛ بل لم تصل إليها قط، رغم أن ما يحيط بها من أثاث استحال بعضه رمادا. كان مصير اللوحة كغيرها من المقتنيات تخلصت منها برميها بمحل أخي مع

قطع أخرى تصلح لإعادة بيعها كأشياء قديمة. لست أدري! ما يشدني للوحة الطفل الباكي، كان يعلو صوتًا برأسي يطالبني بإعادتها، أحيانا أرى اللوحة تأثث أحلامي وكوابيسي، كثيرا ما كنت أرى الفتى يخبط على يدي باك بينما كان يمد يده لمرافقته، مضت الأيّام غدوت فيها ضعيفا مع إلحاح رأيته من الصبي الباكي في أحلامي، فاتخذت قرارا رغم ترددي لوهلة بالعودة إلى دكان أخي لأعيد اللوحة مرّة ثانية للبيت.

ذات صباح وجدتني أقصد محل أخي وعندما وصلت ألفيته مغلقا فما كان مني إلا الإنتظار ريثما يأتي أخي، مضى زمن كنت فيه عجولا بشيء من الملل والتشاؤم حدّثت نفسي ربما!، لن يأتي اليوم.

أغبط أصحاب الأعمال الحرة؛ لأنهم سادة أنفسهم لا متنمرًا يحكم قبضته على رقابهم هم يشعرون بالحرية أكثر من أيّ عامل بدائرة حكومية تعج بمتسلطين، يتلذذون أحيانا في استغلال سلطاتهم، وظلمهم غير المبرر، وعقابهم لكلّ من يخالفهم الرأي أحيانا أو من تسول له نفسه التمرد.

بينما كنت غارقا في تأملاتي سمعت صوت باب المحل يفتح، في عجالة ألفيتني أقفز من السيارة ومشيت مهرولا اجتزت باب المحل ثم ألقيت تحية صباحية للعمال ولأخي ثم اندفعت أبحث عن اللوحة، لمحتها معلقة على الجدار إلى جوار لوحات فنية، حملتها معي دون أن أبدي مبررا رميتها في المقعد الخلفي وودعت أخي وعلامات الحيرة بادية على وجهه، لا يدري لِم عدت هكذا وتصرفت بغرابة، كما أني لم أفرد له تفسيرا مقنعا حتى عندما راح يستفسر الأمر عند اتصاله بي هاتفيا

في المساء. أمضيت ساعاتاً أحدق في تفاصيل اللوحة، أردد في قرارة نفسي هي نسخة عادية فحسب وليست أصلية ما الشيء المميز بها طفل يبكي وكفى، إنّ في الواقع صور لأطفال مشردون متسخوا الثياب يحملون من الألم والبؤس في ملامحهم أكثر من لوحة تبدو رائعة مقارنة بواقع بائس.

الآن اللوحة معلقة بجدار مكتبي، أحيانا أبدوا متطيرا منها ما ألبث وأن أطرد وساوسي وربما تخيلاتي، في الحقيقة فعلتها ربما بحثا عن السلام والهدوء أكثر من أي شيء آخر، مناي أن لا أرى مزيدا من الحرائق. بينما ما لا أقره حتى لنفسي أني كنت خائفا حقاً من المجهول.

مضت الأيام إلا أنّي كنت متوجساً عامراً بالوساوس والشكوك كنت أجلس في المكتب قبالة اللوحة بشيء من الجنون أنتظر أيّ حركة من الطفل. أراقب سحنته الحزينة وأرنو لعينيه، لدموعه و لخديه، لشفاهه لأنفه، لألوان اللوحة، وللإطار. أطفئ نور المكتب ثم أشعله، أحدثه، أثرثر، أمازحه. يبدو أني استغرقت في الهوس حقيقة. اللوحة حازت على اهتمامي حتى أني أهملت نفسي ما عدت أكترث لشعري وذقني ولا ملابسي ما عدت أهتم بأسرتي ولا عملي ولا بالمطالعة، لا أشاهد التلفاز. وحدها فيروز كانت تنظمّ لي بالمكتب لتثرثر وتجتر يومياتها بينما كنت أتصنع الإنتباه لها والاكتراث وأوافق طرحها وأثني عليها حتّى؛ فيروز كانت تحب الإطراء وتبحث عادة عن التقدير وتثمين عملها وإن كان عاديا أو غبيا أو تافها حتى. أما صغيري كانا بعيدان كل البعد عن

حماقات والدتهما. كلّ منهما ماض في الدراسة أو التسكع مع رفاقه بالنسبة لسامر أما سارة فوجدت في رياضة كرة المضرب هواية حيث انضمت لنادي المدينة وصارت تمضي وقتها في ممارسة التدريبات ولعب مقابلات في البطولة الوطنية ثم مشاهدة لعبتها المفضلة عبر الشاشة.

لذا كنت مطمئنا على صغيرتي التي وجدت هواية تشغل وقتها، بدل البقاء لساعات في مواقع التواصل دون فائدة أحياناً سوى متابعة بعض الحمقى المشاهير الذين يجعلون من المتابعين مثل القطيع. سارة ما كانت تهتم بالفيس بوك والإنستغرام والتويتر ... إلا قليلاً، بل عادة ما تفضل مطالعة الكتب الورقية أو الكتب الإلكترونية على الإهتمام "بالسوشل ميديا".

مضت دقائق على منتصف النهار. نشب حريق في الحظيرة بسيارة فيروز، استهلت النار لهيبها بأسلاك الكهرباء، ولولا إنتباه الحارس لكان الحريق قد أتى بالكامل على السيارة، استجابته السريعة جنّب خسارتها، حملت السيارة بشاحنة الأعطال إلى ورشة الميكانيكي، ولأنفق معها ساعات في الإنتظار.

كانت الثامنة ليلا عندما غدت جاهزة، وقفلت للبيت عائدا تعبا من تفاصيل يوم مرهق بدأ منذ السابعة صباحا إلى أن إلتحقت بالدوام ثم فاجعة حريق السيّارة والإنتظار المديد، بينما لا شيء سأفعله الآن إلا النوم فالغد يصادف يوم إجازة.

في الصباح إستغرقت أرتشف فنجان قهوتي بينما أطالع جرائدا يومية إلكترونية طفت لذهني حكاية حريقان لم يمض على حدوثهما وقت مديد.

خطرت لي فكرة البحث عن مواضيع لحرائق غريبة فكتبت كلمة حرائق غير مبررة فألفيت أخبارًا عن حرائق كثيرة بالعالم، انتقلت في صفحات محرك البحث حتى توقفت عند خبر من موقع ويكي بيديا بعنوان الطفل الباكي رنت العبارة في رأسي ضغطت على الرابط ظهرت لوحة الطفل الباكي ومجموعة من الأخبار الموثقة طفقت أقرأها بتمعن في الحقيقة لم أكن أعرف كثيرا عن اللوحة ولا أعرف صاحبها وجدت خبرا منقولا

من موقع "واي باك ماشين" وهو أرشيف رقمي يتبع لجهة غير ربحية تهتم بأرشفة الأخبار على النت.

يصرح أن لوحة الطفل الباكي، رسمها الفنان الإيطالي جيوفاني برا غولين واسمه الحقيقي برونو أماديو، رسم نسخًا عديدة تدور مواضيعها عن صبية وبنات صغار يبكون. تابعت الغوص في المقال حيث في سنة 1969م، بيوم حار بمدريد، كان جيوفاني على وشك إنهاء رسم لوحة. لفت انتباهه في الشارع الواقع أسفل مرسمه صوت نشيج متقطع. عندما نظر من الشرفة رأى صبيا يرتدي أسمالاً بالية جالسا خارج حانة قريبة باكيا. نادى جيوفاني على الصبي وسأله عن سبب بكائه، فنظر إليه بصمت وكان ما يزال يبكي.

أخذت جيوفاني الشفقة على الصبي فقرر دعوته إلى المرسم قدم له طعاما ثم رسم له بور تريهًا. وبعد وقت قصير من لقائه الأول مع الصبي، زار جيوفاني في بيته كاهن محلي فرأى الصورة التي رسمها الفنان للصبي. أخبر الكاهن جيوفاني بمعرفته للصبي المسمى دون بو نيللو وأكد له هروبه ليهيم على وجهه في الشوارع ما إن رأى والده يتفحم حتى الموت عندما التهم حريق بيتهم. كما نصح الكاهن الرسام بأن لا يفعل المزيد من أجل الصبي فأينما ذهب كانت النار تشب في إثره. ارتعب جيوفاني من حقيقة أن رجلا متدينا ينصحه بأن يدير ظهره لصبي يتيم وضعيف، وبالنهاية تجاهل الرسام نصيحة الكاهن وبحث عن الصبي وما إن وجده حتى بادر إلى تبنيه. وفي الأشهر التالية بيعت نسخ كثيرة من البورت ريه على نطاق واسع في طول وعرض أوروبا وأصبح

الرسام ثريا. عاش حياة مريحة بفضل نجاح اللوحة. واستمر كل شيء على ما يرام إلى أن عاد الرسام إلى بيته ذات يوم ليتفاجأ بأن بيته ومرسمه احترقا عن آخرهما وسويا بالأرض. ونتيجته دمار حياة الفنان ثم لم تلبث أصابع الإتهام أن وجهت إلى الصبي بو نيللو، اتهمه الرسّام بإشعال حريق متعمد في بيته، غير أن الصبي هرب من البيت ولم ير ثانية.

لم يسمع أماديو نفسه عن الصبي ثانية. لكن بأحد الأيام من عام ألف وتسع مئاة وستة وسبعين تناقلت الأخبار نبأ حادث سيارة رهيب وقع في أحد ضواحي برشلونة، ويبدو أن السيارة ارتطمت بجدار خرساني بينما كانت تسير بسرعة جنونية لتستحيل إلى كرة من نار، وداخل الحطام احترقت جثة السائق وتشوهت لدرجة كان من الصعب التعرف على هويته. غير أنه أمكن إنقاذ جزء من رخصة قيادته التي كانت في حجرة القفّازات بالسيارة. وتبين أن السائق كان شابا يبلغ من العمر تسعة عشر عاما وكان اسمه دون بو نيللو. مضت فترة قصيرة على الحادث تواترت تقارير صحفية عديدة عن حوادث اشتعال نار غريبة في أنحاء أوروبا. المفارقة الغريبة كانت عدم العثور على أي سجلات في برشلونة تشير إلى موت شاب باسم دون بو نيللو في حادث سيارة. كما لم يعثر على سجلات عن فنان احترق بيته باسم برونو أماديو أو جيوفاني برا غولين. وحتّى على افتراض وجود شخص باسم دون بونيللو وأنّه موديل استخدم في رسم لوحة الصبي الباكي، فإنه لوحده لا يكفي للإجابة على أي من الأسئلة المتعلقة باللعنة التي ارتبطت

باللوحة. ولا بد وأن الكثير لاحظوا أن البورتريهات المنسوبة لأماديو صور بها أطفالا يبكون؛ أطفال مختلفي الأعمار والملامح. ويمكن أن يكون بونيللو وقد لا يكون أيا منهم. ويقال: إن هناك ثمانا وعشرين صورة مختلفة كلّها تحمل الاسم نفسه، أي الصبي الباكي.

ويتردد اليوم أن السبب في نجاة اللوحات من حوادث الحريق له علاقة بطبيعة مواد كانت تستخدم في صنعها. جرت العادة على استنساخ لوحات تنتج عادة بأعداد ضخمة بطباعتها على أسطح قوية تلبية لمتطلّبات وشروط المصنع، وفي حالة الصبي الباكي، كانت اللوحات تصنع من ألواح مضغوطة بينما المادة يتفق معظم خبراء الحرائق على صعوبة اشتعالها، مع أنّه ليس بالأمر المستحيل تماما. إذن أمكن إثبات أن الصور يمكن أن تحترق، لكن بصعوبة. والنتيجة، صار ممكنا تفسير وجود بعض الصور سليمة في مسرح الحريق. وفي الرابع سبتمبر ألف وتسع مائة وخمس وثمانين نشرت صحيفة ذا صن البريطانية بأن هناك رجل إطفاء من يورك شاير يدعي أن نسخًا غير محترقة كانت توجد في عدد كبير من البيوت المحترقة. وأكمل بأنه ليس هناك رجل إطفاء يسمح بدخول اللوحة إلى منزله. وفي الشهور اللاحقة قامت صحيفة الصن وعدد آخر من صحف الصفراء بنشر سلسلة من التحقيقات لأناس كان يمتلكون اللوحة وتعرضوا لإحتراق منازلهم لكن في عام ألفين وسبعة كشف دكتور "ديفيد كلارك" الباحث والكاتب الصحفي أن المزاعم غير صحيحة وأنها فرقعة من أحد محرري جريدة "ذا صن" ليس إلّا .

لكن يا ترى! ما حدث لبيتي للصدفة دور، والسيارة التي اشتعلت أسلاكها أهي مصادفة أيضا؟ كانت أسئلة تبعث على الحيرة حقاً.

***

أعمل بدوام ثمان ساعات في خمس أيام بالأسبوع وراتب لا يرتفع إلا بعد حين من الدهر، لقد كنا ننال دخلا شهريا من بين الأسوأ في العالم، نحن العمال البسطاء أقرب للتسول نعيش بالتقتير محرمون أحيانا من أشياء أساسية لضعف الدخل تبدو لنا ترفا أو من الكماليات لم يخطئ بارون المخدرات بابلو اسكو بار حين أطلق مقولته الشهيرة " لا أحد أصبح غنيا بالعمل من الثامنة صباحا إلى الخامسة مساء". بالكاد نتدبر مصاريف الثلث الأخير من الشهر. لولا مساعدة فيروز بمصاريف البيت لكان الوضع صعبا.

لحظة وصولي لتقاطع الطريق المؤدي لوسط المدينة توهجت الإشارة الحمراء بينما كنت أنتظر مُضي ثواني الإنتظار، ارتمت فتاة بوجهي تلوي قراءة طالعي، حملت عشرين دينارا من أمامي وأعطيتها لها لتنصرف لكنها أصرّت على أن تقرأ لي كفي، وبخفة التقطت يدي التي لم أشعر بها إلا وهي تمتد لخارج السيارة ثم علقت بسرعة: "نيران...رماد. وعبارات لم أتبينها أشبه بالغمغمة. " كذب المنجمون ولو صادفوا".

ما لبثت وأن تركتني واندست بين المارّة ومعها راحت أبواق السيارات تلعلع لا أدري! الآن هل أترجل من السيارة وألحق الفتاة؟ أم أواصل

مسيري؟ لقد كنت مشتتا بحق، لكن كلامها عن الرماد والنيران لامست مهاوي القلب وراحت كلماتها تتمطط وترن في رأسي بالمكتب وأثناء العمل، لساعات وأنا أقلب حديثها برأسي حتى أني كنت شاردا طوال النهار، إلى أن غادرت نحو البيت، ولا شيء يشغل بالي إلا التفكير في كلام الفتاة النحيلة، ثم إني عزمت في لحظة كنت مستلق أفكر بالفتاة إلى الغياب عن الدوام وتعقب إثرها ولو تطلب الأمر سألف شوارع المدينة شارعا، شارعا، حتى أجدها ومعها لعلي ألفي لي تفسيرا.

نهضت باكرًا في عجالة على غير عادتي، ومن مقهى مجاور ارتشفت فنجان قهوة على السريع وحملت معي زادي من عصير وعلبة تدخين، وانطلقت بالسيارة مارا بالجسر الذي قطعته بالأمس، وأقطعه كل يوم، بدا لي خاليا من الرواد، بحثي اليوم سيكون سهلا ربما!، توغلت في شوارع المدنية، وأنا ألوي رأسي يمينا تارة ويسارا حينا، بالكاد كنت منتبها لحركة السير، مرات كدت أصدم المارة أو ألتصق بمؤخرات سيارات أخرى. لففت الشوارع لأكثر من ساعتان دون أن ألمح قراء الطالع هؤلاء. أنهيت تدخين أكثر من نصف علبة سجائر وكرعت كوب قهوة وعصيرا حتى غدوت أشعر بطعم المرارة بلثتي لفرط التدخين تجمع البلغم في حلقي أبدو مقززا وأنا أبصق، حقا تصرفًا أحمقًا ما بدر مني حين لمحتني عجوز مارّة حيث بادرت إلى القول بامتعاض أمام تصرفي غير المقبول بالمرّة : "c'est dégueulasse"... لم أقدر على النظر في وجهها للحظة، شعرت بالخجل من نفسي، ثم أشحت بوجهي مغادرًا المكان بينما واصلت تجولي لساعات دون أن أحقق هدفي.

ملفات مكدّسة بانتظاري كأيّ يوم يصادف العودة من عطلة قصيرة، كنت أكابد لصرف طابور من أمامي ينتظر خلاصا. لأنصرف بوقت متأخر للبيت ناسيا أمر الطفل الباكي ونيرانا تلفحن في كل مرّة، نسيت أماديو ولعنته، نسيت الدون بو نيليلو حتى رأيت إحدى اللوحات معلّقة في مقهى الحيّ هذا الصباح وقفت أمامها تائهًا. أشرت بيدي ببطء للنادل وبادرت بسؤاله قائلا: متى علّقت اللوحة؟، كانت إجابته من أنها جيء بها منذ سنة وأنا ما انتبهت لها لأني ما زرت المقهى مذ فترة مديدة، أضفت قائلا: هل حدث شيء غريب؟.

قال: شيء غريب ؟، بحيرة ارتسمت على ملامحه ثم أضاف قائلا: شيء غريب؟ لم أفهم قصدك ؟.

حادث شيء من هذا القبيل كأن به لم يفهم سؤالي ثم أضاف :

"لا شيء".

بشيء من الخبث قلت له: ما إن عاد من تلبية طلب زبون: ألا يبدو أنّ المقهى أعيد طلائه أجزم أنه ليس اللون نفسه؟.

" نعم... سكت قليلا ثم أردف:" أعيد طلائه قبل سنة من الآن عندما شب حريق في عداد الكهرباء؛ لكن الحمد الله، الحريق كان صغيرا لم يمتد لأثاث المقهى، سوى جزء من خزانة الكتب، جرى صيانتها وجدار احترقت به الملصقات الرياضية وصور اللاعبين ما جعل المالك يقرر إعادة طلاء المقهى بالكامل".

أحتسي قهوة مُرّة مثل العادة؛ بينما الآن غدوت أهرق معها الحيرة. أكان الصغير اللعين سببا في النيران؟ طفق السؤال ينهش ما تبقى من خلايا رمادية ظلت سليمة برأسي لم يمسسها القلق والحيرة والغضب. رجعت للبيت وعزمت أمري الإعتكاف نهاية الأسبوع منفقا الإجازة بالبحث عبر النت عن الطفل الباكي وحكايته الغريبة، والعجيبة.

كنت إتخذت قرارا بزيارة رجل دين والتحري عن حكاية الحرائق الغريبة، بعد صلاة عصر من يوم ممل بطيء قصدت مقصورة الإمام وما إن فاتحته في الأمر حتى راح يدعوا لقراءة القرآن والتعوذ من الشيطان بكلامه وتفسيره وكأن به يطردني بدبلوماسية ربما قضيتي ما كانت لتعنيه يردد في قرارة نفسه كيف لصورة أو حبس الظل كما يقال عند رجال الدين تشعل حريقا.

لا شيء يشغل بالي إلا حكاية النار والحرائق في وقت صرت مطلعا أيّما إطلاع من خلال المقالات والكتب التي قرأتها من على النت بشأن الحرائق وأحداثها وكيف جرى التعامل معها .

***

فكرت في الذهاب للعرافين المنتشرين بالأسواق لعليّ ألفي جوابا يعالج حيرتي بيد أنه كان عليّ الانتظار لأسبوع، فاليوم سبت سأنتظر وأصبر حتى الجمعة القادمة.

تسرّب إلى قلبي شيء من الفضول حيال تاريخ اللوحة ومن ثمة كنت قد قررت قراءة مقالات وجمع أكبر قدر من المعلومات. خلال بحثي

ألفيت كثيرا من الأطفال الذين وجدوا في الأساطير أو الفن، أو اللوحات فكانت أمامي حكايات لوحات مثيرة، وجدت مثلا لوحة الصبي الأشقر أو الصبي العابس، لوحة للرسام الفرنسي جان باتيست غروز، الذي اهتم في لوحاته برسم الوجوه. كما وجدت لوحة أخرى كانت لوحة الأولاد الشحاذون يأكلون العنب والبطيخ للفنان بارت لومي استبان مور يللو، وهو رسام إسباني، وأخرى لصبي مع كلب لإدوارد مانيه، ولوحة فقاعات الصابون للفنان نفسه، والمرأة الباكية لبابلو بيكاسو.

كما قادني الجنون للبحث عن تاريخ البكاء! قرأت كتاب "تاريخ البكاء، التّاريخ الطّبيعي والثّقافي للدموع" للمؤلف توم لوتز. لكن بالنهاية ما الفائدة من البحث عن لوحات بها أطفالا بائسون أو التطلع في تاريخ البكاء، كما قرأت كتبًا عن عالم الطفل استعرتها من الروضة، قرأت أيضًا رواياتًا عن عالم الأطفال مثل الحارس في حقل الشوفان، لـ"جيروم ديفيد سالينجر"، و"بلا عائلة" لـ"هكتور مالو"، و"صبية طيبون" لـ "باتريك موديانو"... كما طالعت رواية الإخوة السود لليزا تيتزنر، ربما كنت أقرب للعبث ما أقوم به للبحث عن أشياء لا ولن أستفيد منها شيئا لحل لغزي؛ بل تعدّ في دائرة المطالعة والثقافة فحسب.

كان اللقاء بمشعوذ بالسوق من أكثر الأشياء التي شغلت بالي ولمّا قابلت الكثير منهم بالسوق وجدتهم جهلة بالفن لا يريدون إلا كتابة حرز لي لكني رفضت. هل الحرز سيحميني من لوحة؟ في لحظة كنت كمن يعالج الحريق بصب البنزين. علاج شيء مضر بآخر أكثر خطورة. أأمن أن هناك سحرا لكن لا أتعاطى معه، فصرفت حكاية الإعتماد على

هؤلاء المرتزقة من مشعوذين منتشرين في أزقة المدينة وأسواقها. انشغلت لفترة محاولا تتبع حكاية اللوحة والتطلع لإجابات أغذي بها حيرتي فمن سيصدق يا ترى حكاية الحرائق واللعنة؟. أهي شائعات وحسب؟، لكن أيّ مبرر يمكن أن أصوغ فصوله؟. أفكر وأتيه شاردا بلا خيوط وبلا مساعدة أجدني وحيدا أمام خراب حلّ فجأة بحياتي التي كنت متذمرا منها أعدها قبل فترة وجيزة رتيبة لكنها بلا وساوس وبوادر جنون يكاد يحرق أعصابي.

دون تفسير يروي ظمأ فضولي، لست أدري أين سيقودني الجنون والعبث بحياتي، إن صرت أصدق كل هذا الهراء ؟. بيد أن البحث عن أسرار اللوحة، والحرائق يبقى يقضّ مضجعي بحق، ويجعل الأسئلة تثير حيرتي، وتقتات منّي، ومن أعصابي المعطوبة كدبابة أصابتها قذائف في الحرب، وظلت في ساحة الوغى تزين ديكورا ملؤه الخراب كحالي.

الحياة بنكهة الخوف والهواجس أمر مقلق، متعب ومرهق، يعبث بسكينة المرء ويجعل من النفسية مهزوزة، لست ممن يعانون الهشاشة بيد أن العطب النفسي ليس سهلا التغاضي عنه قد يؤدي للجنون والإنهيار.

كان يصول، ويجول في أنحاء البيت بحرية، يشعل حريقا في السجادة ثم يرجع إلى لوحته، أنتبه متأخرا لِم يجري فألفي أن المكتب يحترق ومعه يعلو صوت صراخي. كنت أستيقظ أحيانا يتملكني شيء من الرعب، والهلع من كابوس مكرور يتراء لي دورياً.

أحيانا فيروز ذهنها ينفتح على إبتكار أفكار رائعة بدل ممارسة النكد، كنت قد حكيت لها مخاوفي، وهواجسي حيال اللوحة، وحكاية حرائق تنغص لي معيشتي فاقترحت لِم لا أبحث عن ناقد أو مقيّم للأعمال الفنية لعله يساعدني في بحثي وبزيل اللبس قليلا؟، سألت شقيقي لم يضف لي شيئا جديدا، بينما سامر اقترح طلب مساعدة من صديقه الذي يهتم بعالم الفن. بالنهاية طلبت رقمه الهاتفي وضربت له موعدا بالبيت في إحدى الأمسيات.

كان صديق سامر يدرس بمدرسة الفنون الجميلة كان يبدو لوحة من مدرسة الوحشية أو العبثية لباسه وهندامه غير المرتب أقراط ووشوم تغطي ذراعيه حد الانسلاخ أي حداثة تجعل من المرء شيئا عبثيا! هي قناعات على المرء احترامها مهما يكن كل إختار دربا ليسلكه لن ألبس رداء الواعظ اهتمامي منصب أن يساعدني في حكاية اللوحة فحسب، أريته لوحة الطفل الباكي رسم ابتسامة على ثغره وأشار لي بيده أتصدق حكاية لعنة أماديو، ولوحة الطفل الباكي؟... طفق يشرح لي

كيف تقيم اللوحات وتحدث عن طرق النقد فقد ذكر أمامي مثلا النقد الاستقرائي. والطريقة الاستدلالية وطريقة التقمص الوجداني وأخرى تدعى طريقة فيلدمان، وهناك طريقة ريساتي ثم طفق يضرب الأمثلة عن نظريات الدراسة واللوحات حتى عندما ذكر لوحة الطفل الباكي قال: تشير اللوحة بطريقة ريسا تي:" أنّ الفنان وصف الطفل بشيء من الحزن والمأساة المريرة من نظراته ودموعه وتعابيره الحزينة، كما جعل من الألوان قاتمة وسيلة ليظهر اللوحة تشي بالحزن وليس بألوان زاهية، لقد جسد الفنان الجزء العلوي من الطفل رأسه وجزء من كتفيه يغطيه بالملابس والألوان قاتمة وربط دموع الطفل بالحزن، مضمون اللوحة يحمل معنى واحدا، المأساة. ومن هنا عبرها الرسام من خلال الطفل بدموعه لجعل المشاهد يتأثر أكثر بدموع الطفل وحزنه".

ـ يا سيد نادر لا أدري! ما مصداقية الحرائق؛ لكنّ إن كنت تطلب السلامة لم لا تتخلص من اللوحة ببساطة؟. ثم أردف مازحًا "المرّة القادمة قد أجد معك نسخة للوحة "الهروب من الإطار" للرسام الإسباني "بير دل بور يل" .

ـ لا لن أشتري أيّ لوحة لقد اكتفيت. بالمناسبة لوحات ملعونة مثل لوحة الطفل الباكي أ لها وجود؟.

ـ نعم.

ثم فتح هاتفه وراح يتقصى عن لوحات ملعونة كلوحة الأيدي المقاومة لبيل ستو نهم وحكايتها التي ابتدأت في كاليفورنيا عام 1972 عندما

تعاقد أحد المعارض الفنية مع الفنان بيل ستو نهم ليرسم لهم لوحتين فنيتين، مضت فترة قصيرة رسم بيل لوحة الأيدي تقاومه كانت تصويرا للكاتب نفسه بينما كان صغيرا وحزينا وبجانبه دمية تحاول أن ترسله إلى الجانب المظلم عبر تهديدها له بشيء يشبه المسدس، وخلفه تظهر أيادي غامضة تطل من الظلام.

حققت اللوحة نجاحا كبيرا وعرضت في معرض فيرنجيتن في كاليفورنيا، مضت فترة من عرضها بالمعرض حدثت بعض الوفيات المريبة لمن كانت لهم علاقة باللوحة. أول من مات هو صاحب المعرض وكان معروفا بحبه للوحة والاعتناء بها جيدا ومن بعده توفي أحد النقاد يدعى سلديس يعمل في جريدة التايمز أثناء تفقده للوحة وكتابة نقد لها وتوفي أيضا ممثل مغمور أشترى اللوحة وبدعى جون مارلي. ثم اختفت اللوحة لسنوات ولم يسمع شيء بشأنها مجددا حتى ظهرت فجأة عام 2000 على موقع eBay المختص بالبيع والشراء وإقامة المزادات على الإنترنت، كان هناك إعلان لبيع اللوحة بمبلغ 199 دولار وقد ذيل البائع المجهول إعلانه بالعبارة التالية: "لقد عثرت على اللوحة خلف مصنع للجعة في كاليفورنيا، ولقد استغربت كيف لم يقدر أحد العمل الفني وألقى بها في الشارع ، بيد أنه من فترة توقفت عن التساؤل بسبب أنه عندما أحضرت اللوحة إلى منزلي فوجئت بعد أيام بابنتي دينا ذات الأربعة أعوام تخبرني بأن الطفل والدمية الظاهرين في اللوحة كانا يتعاركان خلال الليل وأن الفتى هرب من اللوحة للخارج ولكن الدمية لحقت به وأرجعته إلى اللوحة مجددا بالقوة. يقول صاحبها

في البداية لم أصدق ما قالته ابنتي لأني لا أؤمن بالأشباح والأمور الماورائية، بيد أنه مع إلحاح ابنتي كثيرا أحضرت كاميرا ووضعتها أمام اللوحة ليلا. مضت أيام فوجئت بثلاث صور التقطت آليا بواسطة الكاميرا وكان يظهر فيها الولد في اللوحة يتحرك محاولا الخروج منها وكانت الدمية تبدو غاضبة ولونها أحمر، وما إن رأينا الصور حتى خفنا كثيرا من اللوحة، فقررنا بيعها.

***

لفرط متابعتي حكايات اللوحات العالمية، وبالمعدل إياه من الاطلاع لن يمضي زمن مديد حتى أغدو خبيرا فنيا، ماذا ينقصني ربما لأعرف تاريخ الفن وأخوض مثلا في النحت والتماثيل التي تباع في العالم منها المزيف وقليل أصلي يباع بملايين الدولارات وتتسابق المتاحف على المزادات، وتوظيف الخبراء الفنيين لنيل التحف النادرة. بيد أني كنت أسخر من نفسي فحسب، كما أن أفكاري التي أراها أحيانا تافهة بالنسبة لي؛ أفكار لا أدري إلى أين تقودني؟.

غصت في عالم الفن وأمضيت ليالي في مشاهدة البرامج الوثائقية والتقارير الصحفية عن الرسامين واللوحات، انقطعت عن مواقع التواصل ولعب البوكر من الحاسوب ومتابعة مباريات كرة القدم من أجل البحث في تاريخ الفن وخفاياه. وجديد الأعمال الفنية، قرأت عن المزادات، والمعارض، سير الرسامين ومشاهدة أفلام في فن الرسم كأفلام عن فان كوخ، وسلفادور دالي، وبيكاسو وآخرون.

أذكر أني فكرت مرّة في تعلّم الرسم، ورسم لوحات مائزة، وربما سأرسم الطفل الباكي أيضا، بيد أنّي عدلت عن الفكرة وطردتها من بالي أرى أني إنسان جلف حاد الطباع لا يصلح للفن، ربما كان حريا بي تعلم الملاكمة والمصارعة، بينما الفن ربما يحتاج نفسا هادئة بأحاسيس ومشاعر مرهفة.

كما أن الرسم فن مجاله الموهوبين لا المدعين، من الغباء محاولة فعل شيء لمجرد نزوة عابرة أو لإرضاء للغرور أو التبجح. ليت الكثير من البشر في هذا العالم البائس يعقلون ويمسكون هرائهم فالعالم بحاجة للموهوبين لا للحمقى أو لأنصاف الموهوبين أو المتسلقين بالنفوذ أو المتملقين. العالم بائس وليس في حاجة لمزيد من البؤس والغباء وهذا ما كنت أدركه.

تجيل ببصرها يمينا ويسارا، ترنو للنوافذ، والمارة بالشارع، والمركبات، تقدمت صوبها بأناة حذرة من أعين قد تلمحها، وتشي بها، أو توقف حماقتها، وتفسد ما تخطط لارتكابه، اختبأت بالقرب من جدار الحديقة الصغير؛ كرّت بصرها يسرة، ويمنة، ثمّ فتحت سدادة القارورة البلاستيكية للحمض، ونظرت مليا لعبارة حذار الاحتكاك بالجلد، وعبارة أخرى لا يترك في متناول الأطفال، رسمت على محياها بسمة تشع خبثا طفوليا، وبلا تردّد سكبت نصفها في حوضها، وبجذوعها.

مضت أيام، وكانت شجرة سرو الجيران قد مالت للإصفرار وذبلت بالنهاية. إلّا أن سارة ظلت تراقبها من الشرفة وكانت سعيدة بم صنعت يداها بشجرة السرو التي لا ماء، ولا سماد، ولا دواء يعيد لها بهجتها، اقتلعت من تربتها ما إن استحالت جذوعا يابسة، كان مصير شجرة السرو مأساويا.

ـ لم يا سارة ؟.

ـ اشفي غليلي !.

ـ أمن شجرة السرو يا بنيتي؟ يا لك من غبية.

ـ ابن نرجس وغد متنمر .

ـ أ متاعبك مع شجرة السرو؟ لا ! ليست الشجرة المسكينة من يدفع ثمن ما اقترفه؟.

ـ أيّ سبل لإغضابهم وبث الحزن بقلوبهم أجد متعتي به.

ـ إنها مخلوق حي يا سارة. أتحسبين تصرفك الأرعن ليس أشد سوء مما فعله، لا... أنت مخطئة يا صغيرتي، سارة هل سنغدو جميعنا متعصبون، لِم أقدمت على ارتكاب أمر شنيع ؟. لقد التقطتك الكاميرا وأنت تسكبين الحامض. أخبرني البارحة إلياس وأراني الشريط المسجل لقد طلبت منه التزام الصمت حتى أجد حلا.

ـ هل أنت جبان يا أبي؟.

ـ ...

فيروز قائلة :

ـ سارة خاطبي والدك باحترام.

ـ دعيها تتكلم لا أدري! ما أصاب البنت .؟ أخبريني ماذا حدث حتى تسكبين الأسيد على الشجرة .

ـ مزق لي سعد دفتري المعار. تزم شفتيها وتعلق بنبرة حادة وغد... لقد شكوته للناظر فعاقبه فطفق يتوعدني وعندما لا حت له الفرصة ذات صباح عندما كنت أسير بالحي غافلني وطرحني أرضا بالوحل.

أوف... حسنا سأكلم والدته، لكن ماذا سأقول لها... الشجرة المسكينة أذاك طالها... وسأرافقك للمدرسة لننظر في حكاية التنمر.

في صباح اليوم التالي أجّلت الذهاب للعمل، ورافقت سارة للمدرسة.

كانت الساعة تشير للثامنة وخمس دقائق، من مكتب الناظر منتظرا حتى يصل لمكتبه. مضت ثلث ساعة التحق الناظر بمكتبه من تجول في فصول، وأروقة المدرسة يتفقد النظام العام.

إثر الحوار المديد مع الناظر أبدى استعداده للنظر في المسألة وقام باستدعاء ولي أمر سعد وأوقف بالنهاية عن الدراسة لفترة حتّى يمرّ على المجلس التأديب. أيام وانعقد المجلس بيد أنّه لم يفصله وإنما اكتفى بإنذاره وطوي الملف بتعهده الكفّ عن التعرض لسارة بالمدرسة.

بعيدا عن فضاء المدرسة ليس لمجلس التأديب شأن وقرار. هكذا وجد سعد هواية أخرى في مناكفة سارة خارج أسوار المدرسة وبالحي، ذات حدث أمسك سعد هرّ سارة وركله برجله، كما طارده في الشارع ولمّا أمسكه فقأ له عينه بمسمار.

حملت القط المسكين للبيطري ليعالجه، المدرسة لا تتحمل وزر ما يحدث خارج أسوارها، فقرر مضايقتها بعيدا عن سلطتها كان فتًا نزقا يعيش برفقة والدته العازبة التي لا تميّز أبوته حتى، لنومها مع نصف سكان المدينة، فكرت مديدا في تأديبه بمد يدي بيد أنه فتى صغير وحسبت حسابا أني سأصب الوقود على النار بتفكيري هذا لذا عدلت

عن الفكرة، بيد أني أرسلت له تهديدات، واستهدفت نفسيته بضغطي المتواصل فكف إزعاجها أخيرا. لمزيد من الطمأنينة قررت أن أقوم بتوصيلها كل يوم ثم أنتظرها في المساء من أمام باب المدرسة، على هذا النحو أمضيت أسابيعا إلى توقفت عن مرافقتها عندما انتقلت نرجس لمدينة مجاورة، بينما كان سؤالا يثير فضولي ونقمتي في الوقت نفسه، لِم يا ترى حينا يطيب للغانيات الإقامة به؟. ألا يكفيني الجارة ياسمين التي لا يبعد باب بيتها إلا أمتارا قليلة، حتى أصطدم بجارة ثانية غانية، حينا للأسف غدا مرتعاً لهنّ حيث يؤجرن الشقق أو يشترينها لممارسة البغاء.

ابتعت فسيلة سرو لسارة وأمرتها بغرسها عوضا عن الشجرة المقتلعة حتى تكفر عن ذنبها لقاء ما جنت على الشجرة المسكينة. كانت سارة تذرف الدموع بينما تبدي اعتذارها لنرجس قبيل مغادرتها وابنها المدينة بأيام.

والحق يقال: مذ تلك الحادثة غدت سارة تهتم بفسيلة السرو تلك وتعتني بها، كما أنها استحالت لناشطة تهتم بالبيئة وعالم النبات لا تتردد بالمشاركة لحظة في حملات التشجير بالولاية حتّى أنّها انخرطت في جمعية تعنى بشؤون البيئة. لقد غرست في سارة حبّ النبات والأشجار، لِم يحبّ المرء الأشجار؟. سؤال غبي بجوهره كما أن الجواب بسيط، وبديهي دون أشجار، لا وجود لحياة على البسيطة. الأشجار رئة الكوكب، وسلّة غذائه.

كان حرياً بي العمل بنصيحة صديق سامر، لِم لا أتخلص من اللوحة؟ قد أدفنها بالحديقة أو أحرقها؛ حتّى أرتاح من مناكفة لعنة طفل باكي.

ذات مساء مضيت في رغبتي بإبعاد اللوحة حيث تسللت ليلاً من المكتب حملت اللوحة غلفتها بكيس بلاستيكي، استعنت بمصباح وضعته أمامي، لينير المكان ثم حملت الرفش من أمام شجرة التين حفرت؛ حفرة بعمق نصف المتر ثم وضعت اللوحة وأعدت التربة، حملت أوراق أشجار يابسة وتثرتها فوق المكان لإزالة الأثر.

لأسابيع كنت مشغولا بسامر ودروسه الخصوصية، أدرسه اللغات وينال دعما من أساتذة كلّ في اختصاصه يقدمون دروسا بفصول خاصة، كان خائفا قليلا من اجتياز الإمتحانات لكن التحضير الجيد والدعم النفسي من والدته التي كانت تملك خبرة سنين ذلك أن شهادتها الجامعية اختصاص علم اجتماع وتعاملها مع الأطفال بالروضة يساعدها بلا شك على فهم صغيرها وهي أم أيضا، مضت أيام الامتحانات، ومعها الإنتظار إلى حين إعلان النتائج كنت أشم أعصاب سامر المحترقة من خلال تصرفاته كان يصلي كثيرا، ويقضم أظافره، هادئا، منطويا، وشاردا أغلب الوقت.

نال سامر الشهادة لكن بدرجة مقبول كان حزينا كأنه لم يحصل على الباكالوريا، اختيار التخصص كان صعبا على سامر ما كان مقتنعا بخيار

عن آخر لا يعرف ما يريد من جملة الخيارات الحقوق والأدب والرياضة، العلوم السياسية، العلوم الإنسانية... إختار في الأخير العلوم الإنسانية، ثم اللغات، والفنون، إختارها ليملأ بها الخيارات فحسب، لكنه بدل أن يرسل لكلية العلوم الإنسانية وجد نفسه في الفنون، سامر في الحقيقة بدل أن ينتبذ العلوم الإنسانية إختار الفنون الجميلة بتواطؤ وتشجيع من صديقه، نفيه وصمته كان مجرد ذر للرماد في الأعين، بينما والدته كانت تراه نسخة ثانية ليسلك دربها. أما أنا ما كان ليهمني يدرس العلوم الإنسانية أو اللغات أو الفنون الجميلة أو أيّ مجال آخر. كنت مقتنعاً بقناعته.

مضى الصيف بطيئا، رتيباً، ساخنا، فيروز متذمرة من خيار سامر، نسيت اللوحة وحكايتها، حتّى الكوابيس ما عادت تفسد لي نومي وترفع لي الضغط، بالخريف غادر سامر لكليته وبقيت أنا وأمه وشقيقته، ابتاعت فيروز كلبا لا أدري! أنّى صارت تحب الكلاب فجأة، لقد كانت بالماض تكره القطط ولا تطيق شعرها المتناثر بينما ها هي اليوم تبتاع كلبا مرّة واحدة ليزعجنا بنباحه وطعامه وتنظيفه ورعايته التي لن أقوم بها، لن أمدّ يدي لتحميم كلب، لست مهتما ألبتة، لكنه كان أحمقا كصاحبته لقد أفسد لي هدوئي عندما طفق يحفر في الحديقة واستخرج اللوحة من أمام ناظري فيروز بينما كانت عائدة من العمل مساء. حملت اللوحة معها، وألفيتها بالنهاية بالمكتب معلقة لتفاجئني وتفجعني الأمر سيان لقد شعرت بمزيج من الحيرة والغضب. وأنا أرى الصبي الباكي ثانية فوق رأسي بالمكتب. تبا للكلب هل كان يحسب اللوحة عظاما حتى

ينبش تربة الحديقة ويعيث فيها فسادا؟. لحظة رؤيتي للوحة تعلو جدار المكتب بشيء من الغضب رحت أحمل سكينا أقشر به حبة تفاح ممزقا اللوحة لأشلاء، في لحظة جنون، سقطت من السرير فاستيقظت من نوم ملؤه كوابيسًا مخيفة، كدت أدق عنقي بينما في يدي المنبه ربما كنت سأضرب به فيروز. كابوس مكرور رأيته وأنا نائم في وقت وجيز من عودة اللوحة للمكتب.

يبدو أن الدون بنيللو قد كسب جولة أخرى، كأنه يتحداني مرددا لتهديدات تشي بإحالة حياتي جحيما، يا إلهي كأن به يسخر لحالي، يعذبني، بنظرته الباكية، أخاف الجلوس أمامه، سيشعل نارا في المكتب. يغلق الباب أهرول لأفتحه، أحاول، الباب مغلق، أخبط برجلي، أصرخ فلا مجيب، النار تكاد تلفح وجهي، دخان أستنشقه لأسعل كثيرا، أكاد أختنق، أقع أرضا منهارا أضع رأسي بين رجلي، لأنتحب، وأتوسل له، يتعالى صوتي الباكي...

كان مستمتعا بمعاقبتي، على دفنه بالحديقة، أغمي عليّ، يحطم رجال الإطفاء الباب ليفتح أحدهم مطفأة الحرائق ويرش على جسدي سرعان ما أستيقظ ثانية، يا إلهي سأجن .

ما عساي أن أفعل؟، هل أنا مجنون؟، أ عاقل كفاية لأدرك أن هناك خيطا رفيعا بين العقل والجنون سأضيعه عما قريب؟، أم أنا مجنون فعلا؟، لن تنتظر فيروز كثيرا لترسلني لمصحة عقلية، كنت أركض من العمل صارخا نار، نار... يتحلق أمامي الزملاء. لأنهض من غفوة رأيت فيها كوابيسا، بينما كأن النوم استحال عذابا.

زرت طبيب أعصاب فوصف لي أدوية مهدئة، بتركيز خفيف. غدوت صامتا هادئا، أرى المشاهد والصور أمامي مشوشة، أضع القلم أحيانا لأمضي أسفل الورقة أجدني قد أمضيت على المكتب بعيدا عن الورقة، إلى أن أنبه لأعيد إمساك القلم فأمضي في المكان المخصص للتوقيع، إن واصلت على هذه الحال لن ينقضي وقت مديد سأسرح من العمل لدواعي طبية. لذا آثرت تقديم طلب للإجازة حتى أتحسن لأن بقائي هكذا سيزيد الأمر سوء.

بالبيت ما عدت أطيق الجلوس بالمكتب فهجرته إلى حين. انزويت بغرفتي لا أغادرها إلا نادرا، ثم وجدت في الشرفة متنفسا أعبث بهاتفي أو أقرأ كتابا، أرتشف شايًا، ألعب ألعاب الأطفال الإلكترونية، مشاهدة الأفلام والمسلسلات والوثائقيات، بينما أفكر في ما جرى معي، كنت قليل الكلام كثير الصمت والتفكير، متجهمًا، عابسًا، متشائمًا. كثيرا ما فكرت في رمي اللوحة أو إتلافها، ترددت كثيرًا قبل أن أحمل اللوحة ذات يوم ماطر، وسرت بها كالمجنون ؛ حتّى تراءت لي حافة الوادي القريب.

كانت سيولاً جارفة محملة بالأتربة وخشبًا وأشياء أخرى، رائحة الماء المخلوط بالتربة والمطر كانت عطرا أجمل من أي عطور صناعية يشعر المرء معها بالانتعاش؛ أحمل اللوحة بيدان ترتعشان وأقف عند حافة الوادي بكلتا يداي رفعتها عاليا ثم بلا تردد رميتها بكل قوتي لتحملها السيول الجارفة بعيدا في لحظات شعرت فيها بنشوة. رحت أصرخ

بأعلى صوتي حتى كدت أنسى نفسي وأنزلق للأسفل. قفلت عائدا لبيتي، بينما كان في قلبي أمنية أن لا أرى هذا الصبي اللعين مرة ثانية.

مضت الأيّام هادئة، كنت فيها أستعيد بريق حياتي شيئا؛ فشيئا، كما رجعت لعملي ذات صباح خريفي حيث وجدتني مجددا أمام وجوه زملاء حمقى، زبائن قلقين، مدير عام متسلط، وزوار وفضوليين وصراخ بين الفينة والأخرى في جهي من قبل مديري، إلى أن أرد الصراخ في وجه بعض المنتظرين؛ أراهم بمنظوري الضيق مزعجين.

في أروقة المكتب كانت هناك لوحاتًا لمناظر طبيعة ولوحات عن الصحراء والآهقار والطاسيلي، كنت متوجسا أحيانا من أن تقوم الإدارة باقتناء لوحات وقد يكون من بينها الصبي الباكي، ظلت الهواجس تسكنني، وأحاول الانشغال بأي شيء وصرف تفكري بالانخراط في الثرثرة مع الزملاء. أحيانا الرتابة وحتى التفاهة أفضل من سيطرة الوساوس على المرء.

عاد سامر بإجازة الشتاء يحمل حقيبة بها أدوات رسم، وألوان وأقلام لقد استحالت غرفته لمرسم، يرسم لوحات كثيرة لكن أغلبها لا تعدو إلا محاولاتًا باهتة، تنقصها لمسة إحترافية أو إبداعية كانت لوحات دون روح... لأيام في غرفته معتكفا بينما مذياع قديم تصدح منه معزوفات شوبان وموزارت. كان مستغرقا في رسم لوحات فنية مقلدا لوحات فان كوخ، بيكاسو، سلفادور دالي، كما كان يزور عمه بمحله فينتقي لوحاتًا، ليقلدها، أو ليستلهم أفكارا، كان يعلق ما كان يرسمه من لوحات بغرفته، وغرفة الاستقبال، المكتب، غرف النوم، الرواق، بالمطبخ حيث علّق لوحاتًا بها سلال فواكه، وخضروات، استحال البيت لمعرض تشكيلي.

عند أوبتي ذات مساء للبيت ألفيت سامر وقد عاد في إجازة نهاية الأسبوع كان يحمل معه لوحة مقلّدة لديفيد كاسبر الموسومة بالمسافر فوق بحر من الضباب. كما كان يوشك على إنهاء رسم لوحة أخرى للطفل الباكي نسخة لاتشبه نسختي والتي كنت قد رميتها قبل فترة في الوادي، لقد كنت أدرك أن أماديو رسم ثمانية وعشرين لوحة كلها لصبية يبكون.

عمل سامر على تقليد اللوحة لست أدري أهي واجبات أم رغبة سامر فحسب؟. لما سألته كان رده أنها واجب.

عندما حاولت ثنيه عن إنهاء تفاصيل اللوحة كان يستغرب ما أقوم به لم يكن ليصدق ما كنت مؤمنا به سخر من حديثي ومن خرافة اللوحة، كان عنيدا ومصرا على الرسم صرخت بوجهه وحملت اللوحة ورميتها بهستيريا من نافذة غرفته. على غفلة أعادها وراح يرسم لساعات بالليل.

غدوت قبل زمن قريب غاضبا وقلقا لأتفه الأسباب نصحني معالجي بأخذ اجازة واختيار مكان هادئ ففضلت زيارة الريف لأعيد ترتيب صفحات حياتي المبعثرة. ما عدت أثق في قراراتي؛ لكن سؤالا واحدا يدور في رأسي، لم تظلّ اللّوحة تطاردني أينما ارتحلت؟ مناي أن لا أراها ثانية.

في الريف حيث أمضي إجازة بين المروج الخضراء وحقول قمح، وأشجار زيتون وفواكه، طيور، وأصوات العصافير، الصراصير الليلية، خرير المياه، خوار الأبقار، عواء ذئاب، زرقة السماء، والكثير؛ الكثير من الصمت والسكون وقليلا من الضجيج.

أحيانا أتأمل حالي فأراني كنت مثل غرفة كل شيء بها مشتت فوضى بلا ترتيب، لذا أغبط المرتبين الأنيقين في الحياة. لطالما كانت حياتي سلسلة من القرارات والخيارات الإرتجالية، كنت متسرعًا في كل شيء ربّما لم أحسب لخطواتي جيّدا غالبا ما أغرق في وحل قرارات للأسف كثيرها كان خاطئا.

ها أنا أظلّ أعزف ألحان الخسارة مرّة تلو المرّة. هل كنت غارقًا في شيء لن أجني من ورائه إلّا الخسارة؟. لقد أمضيت عقودا كنت أقرب لدمية ماريو نات في يد سلسلة من الخيارات التعيسة.

هل يمكن للبادية أن ترمم تمثالا بشريا محطما؟، سأمضي وحيدا، كراهب يتعبد في دير ترك خلفه كل شيء إلا روحه التي تهفو لليقين، أو رجل في جامع معتكف، بينما على النقيض كنت إنسانا بلا روح، وجسدا عامرا بالخواء والفراغ ليس إلّا.

استقبلتني عمتي الباقية على قيد الحياة والسنين والتجاعيد والأمراض المزمنة والوحدة ببيتها الطيني، ومضيت بالتسكع في الفيافي والحقول، أمضي أياما بلياليها في الغابات أصطاد الأرانب وأقتات من ثمار الأشجار ما ألبث وأن أعود لبيت عمتي، أما في أيام الشتاء الباردة آثرت الاعتكاف بالبيت لا أغادر إلا للضرورة، وعلى فترات أتلقى اتصالات من فيروز لتطمئن على حالي ولتجسس عليّ لتتأكد أني لم أتزوج مرة ثانية.

***

مع حلول الربيع فصلت في أمر العودة للمدينة ودعت العمّة التي أحزنني مظهرها فقلد انهارت صحتها كما انهارت من قبل العمة بهية وماتت.

مضت الأيام وما زلت أقتات على المهدئات لئلا أرى كوابيسا كانت قد لاحت وعاودتني لمّا رجعت للبيت تذكرني بذكريات سيئة تطفو لذهني وتستبد بوعي.

حال عودتي سمعت بقصة انتحار ابن جارنا .

ـ كان اسمه نوّار.

ـ اسم امرأة !؟.

ـ لا صبي.

ـ عجيب ،! لا فرق بين الذكور والفتيات بالأسماء !؟.

...

ـ لم لا تصمتين يا فيروز؟ أيّ وقاحة طافحة تلك ، لم أنت فَضَّة ؟. الرجل حزين لموت فلذة كبده بينما تعلقين على اسمه، نادم ومتأسف حين سمحت لك مرافقتي. هيّا بربك اصمت.

ـ آسف ياجاري، أكرر أسفي... ماذا حدث ؟...

ـ كعادته نهض صباحا، تناول فطوره لبس معطفه قبّل أمه وخرج من البيت ثم... يصمت للحظات متأثرا ينهار بالبكاء وصلنا خبر انتحاره...

مضت لحظات هدأ فيها الأب قليلا...

ـ كيف. أنهى حياته؟.

ـ لفّ حبلا على عنقه ...

ـ أين غرفته؟.

ـ الطابق الثاني الغرفة الثالثة.

ـ أ تسمح لي بنظرة؟.

ـ حرك شفتيه قليلا

ـ نعم تفضل من هنا.. بينما يشير إلى السلّم.

في غرفته لا شيء يثير الاهتمام غرفة بها سرير ومكتب وخزانة وشرفة تطل على الشارع، ما سمعته من والده بشأن التحقيقات وتقرير محضر القضية أكدت أنه كان انطوائيا لم يعان من تنمر أو سوء معاملة بالمدرسة فاقفل المحضر بالنهاية، رغم أن والديه شبه متأكدين من أن نوار يعاني شيئًا من الإكتئاب.

***

رجع سامر بحلول الصيف من كليته ليقضي الإجازة الصيفية بدا حزينا منطو يفضل الجلوس قبالة النافذة يدخن بشراهة يحدق في الأشياء كالأبله. الوجوم يلفه. انعزل بغرفته، بينما كانت والدته تطرق بابه وتصرّ بإلحاح قبل أن يفتح لها ثم صار يستقبل طعاما وماء من أمام باب الغرفة ويغلق على نفسه.

إلى وقت قريب كان يترك الطعام على حاله أمام الباب ما أثار قلق والدته، كان يغادر غرفته لقضاء حاجته أو شرب الماء من الثلاجة، ذات يوم لم يخرج صباحا كعادته من الغرفة ما أثار قلق أمه. وما إن فتحنا باب الغرفة حتى ألفيناه ملقى أرضا وإلى جواره علب دواء والزبد

يغطي فمه تحسست نبضه فبدا ضعيفا. بينما بجدار الغرفة كان قد أنهى رسم جدارية للطفل الباكي.

كان أول سؤال يمرّ في ذهني وأطرحه على سامر ما إن استفاق من غيبوبته. لم يا سامر ترسم الطفل الباكي بالجدار أخبرني بني؟، قاطعني قائلا بصوت متقطع: "لا أدري!" يرتفع صوت بكائه يدير رأسه للجدار يردد: الصبي... ثم يغرق في الصمت لأيام، كانت وحدها رموش عينيه ما يتحرك، التحاليل أشارت إلى أن سامر كان يتعاطى "ليريكا"، والمخدرات، ما كنت أدرك أن سامر صار يتعاطى المهلوسات يبدو أن ابتعاده عن البيت أطلق له العنان لحرية جعلت منه يطرق أبواب التيه وينخرط في دروب الانحراف.

بتوصية من الطبيب المعالج وجد أنه بحاجة لرعاية نفسية وقرر إرساله للمصحة. رفضت ورفضت أمه بشدة ما كان يريد فعله الطبيب؛ لكن ما أن غادرت المشفى بوقت قصير حتى سمعت أن سامر غافل الجميع مزق شريان يده بأسنانه وطفق يرسم على جدار الغرفة، انتبه له الممرضون فأسعفوه، وقيّد إلى السرير بإحكام.

جلست متأملا وأنا أرى الجدار يشتعل، امتدت النيران في الفراش وكادت النيران تلتهم السرير الخشبي، بينما راح صراخ فيروز يعلو في وقت كان الباب يدفع بقوة لحين تحطمه، والنيران تمتد لسترتي. ما لبثت أن رميت ببطانية مبللة ثم دفعتني أيدي ومعها كنت أرفض وأقاوم أدفع بجنون وأصرخ دعوني وشأني لألفني بالنهاية جالسا بسيارة الإسعاف مخدرا

بالصدمات كانت حالتي هستيرية حيث كنت أتخيل حريقا، الآن أدركت كم أنا قريب من الجنون.

غادرت إلى المشفى صامتا، من سرير الكشف قدّم الطبيب توصية بأن أعرض لكشف الطب النفسي.

في الصباح أجدني نزيلا بمشفى الطب العقلي يا إلهي أدرك أني لست مجنونا؛ بل رجلا غاضبا منهارا، ويائسا، الآن أتجاوز الأبواب ولا أسمع إلا أصوات الأقفال الحديدية، أمضيت أسبوعا بجناح التقييم ثم نقلت لعنبر النزلاء.

ألمح في الصباح بالرواق رجلا يحمل دمية وآخر يحسب نفسه رائد فضاء وهناك من يعد الحصى يحسب أنها نقود وآخرون هادئون يبدون بلا وهج.

دنا كهل منّي ذات صباح يدعى بالمدير همس في أذني" هل تلعب ضامة؟". لعبة شبيهة بالشطرنج لكن بقوانين مغايرة عن الشطرنج، في لحظة انهيار، لست مجنونا، لست مجنونا، طفقت صارخا بوجوههم بينما طفقت ضحكات ترتفع في كورال جماعي "من المجنون؟ نحن لا، لا"... بل أنت، نحن عقلاء... أمسك بي من قبل ممرضين بشدّة بينما يد خفية تمتد لي تمسك حقنة تغرسها في وريد ساعدي ثم يجرانني عبر الرواق لأصرخ مرددا لست مجنونا... أرمى في غرفة صغيرة يداي مقيدتان في جبة للخلف. عند الزاوية جامدا كصخرة أحدق في الفراغ قبل أن أستسلم للنوم.

تناولت كثيرا من الأدوية مرغما كنت مرتخيا ذابلا طوال اليوم، كان العلاج المقدم لي عقاقير ثم العلاج المعرفي السلوكي أي الحديث مع معالجي والفضفضة.

"التفكير السلبي عن الواقع المحيط. سيقاومه العلاج المعرفي السلوكي من خلال تعديل الأفكار، وتحسين صورته إلى نفسه ومحيطه"... هذا ما سمعته خلسة لحوار طبيبان كانا في مشاورات يتدارسان ملفي.

لقد أخذت بالنهاية عددا من الجلسات النفسية والتأهيلية. هدأت من روعي قليلا، كما سمح لسامر بالمغادرة لتحسن حالته، ثم سرحت أنا أيضا بعد فترة وجيزة من خروج سامر.

كانت أيامي بالمصحة رتيبة مملّة. من الأشياء التي لفتت انتباهي قيمة السجائر هنا الكل يبحث في إثرها لطالما كان المرضى يتسولون في كل مرة الزوار من أجلها. جملة "خويا أعطيني قارو" تقابل المرء حيث ما ولّى وجهه، شيء آخر كان يثير تقززي رائحة الأروقة والعنابر التي تبدو بطعم الأدوية التي يتعاطاها المرضى.

كان المدير يمضي يومه في لعب الضامة بالساحة بينما قليلون هم من يسمح لهم بحرية التجول بالمشفى في حين المدير يصول دون أن يُعكّر صفوه، الناظر لملامحه يرى كهلا وقورا هادئا عرفت من بعض المرضى أنه كان مديرا سابقا للمشفى، لكن تدور دائرة الأيام وها هو اليوم أحد نزلائه. علق شاب متهكما " دفع كواغطه". من تواصلي معه

ومشاركته اللعب أخبرني أنه كان مهتما بالتنجيم ومطالعة كتب السحر والشعوذة، حدثني أنه يمارس الإسقاط النجمي، ولطالما غادر جسده بيد أنّي لم أكن لأصدقه، يثرثر عن تجارب وأشياء غريبة كسفره إلى القرن التاسع عشر وزيارة أماكن بعيدة. كان مهووسا بالحديث عن عبد الله الحضرد وكتابه "العزيف".

مواضيع وحكايات تشغل بال المدير ليست كفيلة بالجنون فحسب؛ بل كانت سترسل المرء للجحيم.

قبل أن أراه في حديقة المصحة كان سامح يرتمي على الأرض بأرصفة الحي، يستريح من بؤسه يضع ساقا على ساق متكأ ملقيا رأسه إلى جدار بيتهم الرطب المهترئ، معلقا به شهادات تخرجه... نفث دخانا من سيجارته دون أن يكترث لشيء سقطت دون عمد بقايا السيجارة على قميصه الذي بدا كغربال، لعابه نزل على صدريته كطفل صغير، وغمغمة صدحت من فيه رنا يمينا، وشمالا لفّه شعور غريب، بينما بلادة غشت عقله، انتفض مرعوبا على وقع مناكفة الصبية له، قذف من قبل مراهق بقطعة طين لطخت وجهه انتفض على إثرها غاضبا، طارده آخر بينما كان حاملا لدلو ماء، للأسف كان أوغاد الحي من صبية نزقين يتفننون بإزعاجه.

كان في كل مرة يتوارى عن الانظار، يختفي بلا أثر لأيام ثم يعود للحي ومعها تستأنف جولات السخرية من الأولاد وتطاولهم ولا أحد يحرك ساكنا، ليخلصه من مضايقتهم.

متى ما اشتد عليه الأمر من جراء تعرضه للمضايقة كان يتوارى عن الأنظار، غيابه المديد كان يدفع سكان قريته إلى السؤال عن أحواله بحثهم عنه لا لسواد عينيه؛ لكنّه الفضول. كما كان في كلّ مرة لعبة أولادهم المفضلة.

كانت له طقوس يؤديها بالحي كما أراه يفعل الآن في المصحة فلطالما راقبته عن بعد مرارا حيث كان يتخذ من الأرصفة فضاء ليكوّم التراب على هيئة قبور صغيرة ومن ثمة يجمع الحجر الصغير وأعواد ثقاب من أجل عمل شواهد قبور، إلا أن معظم ساكنة الحي كان يعامله بلامبالاة، تمضي ساعات أو أيام من تشكيل مجسم على هيئة قبر، كان سامح يجيب سائليه بشيء من الهدوء، والثقة أن القبر يخص فلان، ويصر على الاسم بعناد. كانت هناك بعض الوفيات لأسماء مذكورة في مجسمات القبور. لا أذكر المرات التي شهدت وفاة أحد ما من الجيران لكنها حدثت فعلا. انتبه له بعض الجيران وأثار مخاوفهم و وساوسهم .

لطالما ناكفه شيوخ الحي، الذين عادة ما يقدمون على طرده من أمام محالهم وبيوتهم لقد صار شرا يتطيرون من جلوسه وإعداده لقبور كما لو كان معنيا بحصد الأرواح لا أدري! أي خوف يصيب شيخ يهفو لمزيد من الأيام في حياة تعيسة بائسة ربما هو خوف دون استعداد للموت بزاد جميل لا أكثر، عندما يفاجأ شيخ ما بقبر صغير أمام باب بيته أو حديقته كان قد أعده سامح، يلتاع قلبه يمضي أياما خائفا مذعورا يرهف سمعه لنبضات قلبه ليتأكد أنه مازال حيّا ولم يتشرف بعد ملك الموت بزيارته. لذا كانوا يسلطون الأولاد لدفعه للرحيل بعيدا عن الحي.

آخر ليلة أقضيها بالمشفى ودعت فيها صديقي المدير الذي لطالما كانت لعبة الضامة تجمعنا من على أرض الحديقة بقليل من التراب الذي يستحيل لمخطط ضامة وبعقب السجائر البيضاء والبنية تؤدي دور القطع كما في الشطرنج لكنها الضامة ذات قوانين مختلفة عن الشطرنج .

***

في غرفة الاستقبال بمساء بارد كانت ليلتي الأولى بعيدا عن المجانين وأصحاب المآزر البيضاء، ورائحة مقيتة، وصراخ، وجلسات العلاج الكهربائي. كنت أبحث عن فيلم أمضي به وقتي، لا أدري! لِم راقني مشاهدة الفيلم المصري "المجانين في نعيم" فيلم من بطولة إسماعيل ياسين ورشدي إباضة وفنانون آخرون غابت عن ذهني أسمائهم يحكي الفيلم عن رجل اسمه قنديل يؤدي دوره إسماعيل ياسين فبعد أن أمضى بطل الفيلم عشر سنوات داخل مستشفى المجانين خرج باحثًا عن عمل دون جدوى فالجميع يطالبونه بشهادات عمله السابق. بينما كان والده قد ترك له خمس مائة وخمسين جنيه قبل وفاته ثم خطرت له فكرة إفتتاح مكتب لعلاج مشاكل الناس... انغمست في المشاهدة، والتركيز مع أحداث الفيلم إلى أن أسلمت جفناي للنوم.

مضى شهران من مغادرتي للمشفى كنت أحاول ترتيب حياتي التي كانت تبدو كمجموعة من البازل المشتتة أحاول جمعها كجمع خيوط ما أحالني للإنهيار والجنون.

ذات صباح عندما لمحت الفتاة قارئة الطالع ثانية صرخت بوجهها يا فتاة... ثم كبست على الفرامل، وفتحت الباب بسرعة فقفزت مهرولا صوبها دون أن أعير انتباها أو إكتراثا لحركة السير قررت في لحظة جنون إمساك الفتاة بأي ثمن. زمن أنفقته في الهرولة كان كفيلا ليحرر لي الشرطي مخالفة ويقدم على نزع رخصة القيادة. الفتاة لست مستعدا لأن أتركها تغيب عن ناظري وتقتات الحيرة من نادر تبعتها حتّى وسط المدينة.

من كافيتريا وسط المدينة رحت أمسك يدها وأطلب أن تقرأ طالعي... الفتاة كأن بكما أصابها كانت أن أخبرتني أنها لا ترى شيئا حاولت معها كثيرا أغريتها بمال لكنها لم تقل شيئا. تركتها لحال سبيلها وأنا تائه كمن ضاع في متاهة حديقة "هورتا" ببرشلونة.

أمضي يومي الباهت بالبيت بين الحديقة والمكتب لا شيء أفعله بعد أن أحلت على التقاعد. تقرير الاختصاصي النفسي كان تقريرا سيئا يدينني، رفعت قضية وها أنا أنتظر لأربعة شهور في النهاية ثبت قرار الفصل أو الإحالة على التقاعد، كان طردا بدبلوماسية، عندما أحلت على التقاعد. على العموم كنت أتعاطى المهدئات، فيروز تدير روضة فما الحاجة إذن للجري وراء المال، ماذا سأفعل به؟. أنا إنسان اكتفى من الدنيا لا شيء يبهجني لا رحلات، ولا سيارات. ولا أي شيء من ملذات الدنيا لقد اكتفيت وغدوت زاهدا كالنساك.

في الفترة الأخيرة كثيرا ما تجتاحني نوبة هلع ترتفع نبضات قلبي وخوفا يتملكني لست أدري ما السبب؟. في لحظة شرود أقرأ كتابا كنت

أحمله مقلوبا لا أعرف إن كنت أقرأ أم أتغابى؛ سرعان ما خطرت لي فكرة لم لا أجرب الأدب سأصير كاتبا ماذا ينقصني حتى أكتب رواية؟ أنا كهل متقاعد من العمل. ماذا أفعل بوقتي؟. سأكتب سيرة روائية. سأكتب عن المجانين واللوحة البغيضة، وما مرّ بي اختليت بنفسي ورحت أكتب عن المجانين وهوسهم، أحاسيسهم، أناتهم، خيباتهم كتبت صفحات قليلة لا تعدو إلا قصصا متناثرة. تجربتي السابقة في المصحة كانت غير كافية، كما أن الدواء الذي أتناوله يجعلني ذابلاً ، مرتخيًا.

مضت الأيام بيد أن الانتكاس ما يواجهن، توقفت عن تناول الدواء مما عجل بتدهور حالتي لأعود مرة ثانية للمصحة. ودورة جديدة من العلاج، وتناول الأدوية وجلسات تقييم نفسي يعامل فيها المريض كفاقد للعقل أو يشبه الطفل الصغير، كم أمقت نبرة صوت المعالجين الحادّة تارة والهادئة طورا...

يوما بعد يوم تبدو حياتنا رتيبة بالمصحة، كنت في شوق لرؤية المدير ولقائه، وما إن سألت بشأنه حتى شعرت بخليط من الإحباط والإمتنان كان قد غادر مذ فترة.

قابلت هاهنا مرضى ذوو ثقافة وتعليم جيد مثل مدرس لغة عربية كان قد أصيب بانهيار عصبي جراء أزمات نفسية مرّ بها. من الأسباب التي رمت به بين جدران المصحة فرط حرصه على أدق التفاصيل سمعت بضربه طلابه الذين كانوا يثيرون جنونه بسبب كثرة أخطاءهم النحوية والاملائية. كان يبدو مصابا ربما بمتلازمة التحذلق اللغوي التي تطورت مع مضي الوقت إلى انهيار عصبي، كما قيل إنه لطالما كان يحمل صفحات الجرائد ويستغرق في التعليق على كثير من أخطاء يصادفها.

بالمصحة ننفق أيامنا بسخاء في الانتظار. المرضى ممتلئون بالخيبات واليأس والانكسار، الأوهام، والأماني، الكوابيس، الذهان، الغضب الحنق، العتب...

كان يوما مشمسا في منتصف النهار بالفناء، المرضى موزعون على المقاعد هادئون وآخرون يمارسون طقوس هذيانهم يتمتمون بكلام لا يبين.

بينما كان مشهد المرضى وهم يتناوشون مثيرا ما إن شربوا حصتهم اليومية من الدواء ودون سابق إنذار انخرط بعض المرضى في النزال.

كانت رؤيتهم لأصحاب المآزر مقبلون نحوهم بغضب كافية لبث الرعب في قلوب مرضى ارتموا أرضا منبطحين حين سماعهم لصراخ أعوان الأمن والممرضين. هدأت الساحة إلا من بضع المرضى المشاغبين الذين يعانون من فرط النشاط، فكانت تدخلات الممرضين والحراس ضرورية لتسمح أخيرا بتهدئتهم .

بالمشفى بعض المرضى الخطيرون يقدمون على عزلهم بالكامل في غرف مخصصة يراعى فيها الحرص على إجراءات لحماية المريض من أن يعرض نفسه للأذى. المرضى هنا كل وتشخيصه حالات أغلبها تشكو من الانفصام، وحالات الذهان، انهيارات عصبية جراء صدمات لم يتحملوها، المعاناة من اضطراب ثنائي ذو اتجاهين، إتجاه إما الفرح والحركة المبالغ بها والشعور بالنشوة، أو إتجاه نحو الاكتئاب الشديد...

في المشفى كان هناك جناح د للمصنفين في الجناح ضمن فئة "المحكومون بالإعدام" من مثل المصابين بمرض عقلي مزمن حيث لا يتم تسريحهم إلا صوب المقبرة.

في العادة المرضى يثورون ويصرخون ويضربون على الجدران وهناك من يؤدي حركات غريبة كالوقوف طويلا كصنم دون حراك، مثل ما كان قد دأب على فعله مريض كان اسمه وحيد طالب جامعي تعرض لصدمة قوية. حسام كهل كان ينتظر الزوار لممارسة جنونه، فمن يلفيه

في طريقه يصفعه ويركض هاربا. غانم كهل يسند ظهره للجدار يبكي ثم ما يلبث يغرق في موجة ضحك هستيرية. منير شاب كان يكوي جسده بالسجائر وما كان ليشعر بشيء يداه تبدوان كسطح المريخ لفرط الكي يقال بسبب والدته المنتحرة، التي تركته وحيدا بينما كان ما يزال حدثا ماتت لما شربت سائلا حارقا بعد معاناة مديدة من اضطرابات نفسية .

كان هناك الجناح "س" مخصص للمساجين من "مجانيين" ارتكبوا جرائم جنائية كالقتل كانوا هنا للكشف كثير منهم يدعي الجنون للإفلات من العقاب كما هناك مساجين تعرضوا للجنون خلال فترة محكوميتهم. ما كان يسمح لهم بالخروج، و الاختلاط .

ذات صباح ألفيت فيروز بانتظاري في بهو المشفى لترافقني إلى البيت لكن بالأيام الأخيرة طفقت الكوابيس تعود ثانية لي بنومي أرى شبح الدون بو نليو يصول في أرجاء البيت حاملا لولاعة يشعلها ثم يطفئها، الصمت والظلام يلف المكان بينما لا أرى إلا ابتسامة خبيثة ترتسم على ثغره ثم يختفي.

ذات مساء دنى ببطء إلى السرير حيث كنت مقيدا لا أقوى على التحرك لم أدرك من أحكم وثاقي. يقف أمام السرير بعينان حادة تخترقان روحي ليلوي في لحظة جنون إشعال البطانية بينما طفقت أبكي وأصرخ... لأنتفض من نومي فزعا مرعوبا من الكابوس.

في الأيام الأخيرة غدوت أميل للكسل، والخمول أرنو للكسل بشيء من الإيجابية أراه طريقة حياة وفلسفة لطالما طالعت بعضا من روايات الكاتب ألبير قصيري وأعجبت بطرحه وفلسفته فألبير نذر نفسه للكسل الجسدي بغرفة نفسها طوال عقود من الزمن، فلسفة الكسل خطها في أدبه ورواياته فرواية الكسالى في الوادي الخصيب رواية كسل بامتياز تتحدث عن عائلة أفرادها كسالى يعيشون في انتظار اللا شيء.

الكاتب هرمان هيسه في مديح الكسل يقول بكتابه فن الكسل:" تعلمت التدريب على متعة فعل اللاشيء أي" متعة أن لا تفعل سيئًا".

آثرت انتباذ الكسل كأسلوب حياة، سأجلس في مكاني ولن أفكر في الصبي الباكي، لن أفكر في فتيان غجر أماديو وحكاية إيطالية كانت تجوب العالم عن لعنة لوحات أماديو، سأستلقي هنا في غرفتي وبالشرفة وأجلس عند نواصي الشوارع، وفي المقاهي وحيدا أعبث بهاتفي أو أحمل جريدة وأنخرط بحل الكلمات المتقاطعة لأنشد السلام والهدوء.

لكن أيتركني العالم البائس وشأني؟ أ يدعني الطفل الباكي؟، أتتركني فيروز، وسارة، الجيران، وكل الأوغاد والحمقى المتنمرون أنعم بكسلي؟، لست متأكدا، أحيانا العالم يلفي متعة في العبث بهدوئنا حارمنا إيانا من السلام. أما قال الماضون من البحارة:" إنّ الهدوء يسبق العاصفة". في إشارة أن لا شيء يدوم على حال.

كنت عادة أنتظر أن شيئا ما سيئا سيحدث، كنت متأكدا أن هناك خطبا ما. لأني لطالما خبرت أن الحياة اللعينة لا تتركني أنعم بهدوء فكانت لا تتوانى في صفعي يمينا تارة، ويسارا طورا، كان وجهي عادة في انتظار أن تعبث به الصفعات التي تكيلها لي الحياة اللعينة.

أدرك أن لا راحة لشقي من البؤس والتعب سيظل يطارده الشقاء أينما حلّ، وارتحل في وقت غدوت خائفا بلا سبب؛ خائفا من المجهول؛ خائفا من سعادة، وفرح يعقبها ابتلاء وحزن .

شيئا فشيئا وجدتني أهدئ من روعي وأتخلى عن حذري وأقبل على الحياة، دون خوف بل رميت كل هواجسي خلفي لكن هل سيستمر هذا الهدوء؟ ذاك ما كنت أمنّي نفسي به.

الصبي الباكي؛ الصبي الباكي، أعترف أنه صار يحتلّ تفكيري، وبنغص لي حياتي، مع مضي الوقت غدوت مدركا أنه وافد جديد في أسرتي الصغيرة، يأخذ اهتمامي كأنه ابن جديد ينضم لنا ويفرض حضوره، بل إنه أمر مقدر لي التعايش معه.

تقبل الأمر سيمح لي بالتقاط أنفاسي، التفكير السلبي يهدم الروح، إنه سقم يصيب المرء، ويحيل حياته جحيماً.

ماذا حدث يا فيروز؟ اهدئ أنا أستمع لك، إنك عبر الهاتف ولست أمامي لتصرخي. اهدئ فحسب.

ـ حطم غرفة ألعاب الأطفال اللعين وصراخه يملأ الأرجاء...

ـ هلّا اتصلت بالشرطة .

ـ فعلت.

ـ ماذا حدث؟.

ـ كنت بالمكتب عندما سمعت صراخ مربية...

ـ لم؟

ـ لا أدري!.

ـ أين أنت الآن؟.

ـ بالمكتب .

ـ حسنا أنا آت .

وصلت متأخرا كعادتي، غالبا التأخر في كل شيء كان نصيبي ما كنت الأول بشيء في حياتي لطالما عشت حياتًا كلها مبنية على التأخر في تحقيق كل الأشياء، حتى أنّي أفقد بهجتي بالأشياء وتغدو عند نيلها كأنها تحصيل حاصل بلا متعة ولذة الوصول ونيل المراد.

كان بالروضة حشد من أولياء الأطفال والشرطة. بينما المتسبب بالفوضى جرى توقيفه والآن يخضع للتحقيق .

ـ فيروز ماذا حدث؟.

ـ "الحيوان" حطم الألعاب والتجهيزات .

ـ لِم؟.

ـ كان غاضبا من طفل قبّل ابنته من فمها.

ـ ماذا؟.

بينما كانت لبنى ووسام يستعدان للخروج دنى نحوها وطبع قبلة ثم لوح لها وسام بيده مودعا أمام أنظار الجميع ثارت ثائرة أب لبنى بينما كان يرنو لطفل يقبل ابنته، غضب بشدة وتلاسن مع أم وسام، صفعها لترد بشتائم وكان الحارس قد انخرط في الملاسنات مع أب لبنى الهائج وحاول ثنيه من دخول مكتبي ومقابلتي فدلف إلى قاعة الدرس وعبث بها... والدة وسام أخبرتني أن ابنها كان قد قبّل زميلته بعفوية دون أن يدفعه أحد.

ما كنت لأتخيل أن العمل بالروضة يحمل مصاعب جمّة، حكايات أسمعها من فيروز عن متاعبها، أحسبها تافهة مقارنة بم كنت أعيشه بتفاصيل يومياتي في العمل.

لا أجيد التعامل مع الأطفال. كما لا أطيق ضوضاء يحدثونها، حتّى عندما عرضت فيروز مشاركتها العمل بالروضة رفضت، أدرك أنّ ما بقي لي من أعصاب ستتلف ما إن أمضي بضع أيام بالروضة.

من سنين خلت حدثت بالروضة كثير من الحوادث منها الغريب المضحك والطريف حدّ التندر. كقصة تفاصيلها أن طفلا يدرس بالروضة كان يقترب من رفاقه فيعضهم ويترك أثار أسنانه على أجسامهم بعض يغادرون الروضة وهم يحملون أثار عضاته حتى أن الأولياء كانوا منزعجين لِما حدث. لوهلة كانوا يتهمون المربين. لولا كاميرات تسجل كل شيء لما صدق الأولياء حكاية مصاص الدماء الصغير. فيروز بعد حادثة صغير تعفّن موضع العضّ، اتخذت قرارا بفصله وطرده، كان سيسبب لها هجرة جماعية للأطفال، لقد كان أولياء الأطفال يخيّرون فيروز بين فصل الطفل أو يبحثون لهم عن مكان أكثر أمانا لصغارهم، الولد كان خطراً محدقا على الأطفال.

مرّة كان هناك صبي لا يخرج من فمه إلا سباب، وكلمات بذيئة، ما مضت شهور قليلة حتّى لقّن فصله هنا بالروضة نعوتا مسيئة وسبابا وشتما. فأنزعج أهالي الأطفال الذين كانوا يرسلون أولادهم لتعلم أشياء مفيدة. لكنهم كانوا قد حملوا في جعبتهم قاموس البذاءة فاحتج الأولياء كثيرا على فيروز التي أجرت تحقيقا واكتشفت الصغير الذي كان يعلمهم الكلام البذيء فصرف بالنهاية من الروضة.

الأطفال أحيانا مزعجون حقا، صغيرتي سارة لم تكن أقل جنونا من هؤلاء كثيرا ما كانت تستف ترب الأرض، أو تعبث برأس القط المسكين،

انزعج مرة عندما كانت تعض له أذنه، علا موائه ثم غرس المخالب الصغيرة بوجهها فأدمى لها ملامحها على إيقاع نشيج بكاءها.

مضت أيام بدت فيها أنها لم تنس صنيعه بها، كانت حاقدة عندما حملته للحمام، وغطسته في حوض الاستحمام وكادت تغرقه، لولا سامر الذي هبّ لنجدته وأستله من بين أيديها. حتى عندما سألتها لِم صممت على إغراق القط؟، كان ردها بعمر السادسة أنه شوه لها وجهها بمخالبه؛ ما عرضها لسخرية وتنمر زملاءها بالمدرسة.

سامر لم يكن استثناء كان شقيا كأخته، شقاوته تجاوزت الحدود، ذات حدث كان يريد تقليد أولئك السحرة الذين يقدمون ألعاب خفة فقرر ذات أصيل من يوم شتوي إدخال سكين في جوفه كما يفعل من قبل لاعبي الخفة فكاد يخسر حياته لولا والدته التي تفطنت له فأوقفته، ولحسن الحظ أصيب بخدوش طفيفة في حلقه. أسوأ شقاوته على الإطلاق كانت دفعه لشقيقته من على دروج السلم حيث اصيبت بكدمات وجروح برأسها وارتجاجا بالمخ. كان تهوره بسبب تمسكها بلعبة إلكترونية كان يرغب بنيلها لأنه حطم لعبته وكان يود أخذ لعبة أخته. قضت أياما بالمشفى، بينما ساءت علاقتي بفيروز بسبب إهمالها لولديها كنت قد طلبت من فيروز رعاية أبنائها بدل دوامها الذي يستغرق ساعات تترك فيهم الصغار برعاية الجدة المسنة التي كانت نفسها بحاجة إلى رعاية فبدل أن ترعاهم غدوا يلبون طلباتها. يقضون لها حوائجها كأن تطلب من سامر ابتياع أشياء من البقالة أو شراء الرغيف من الخباز، تعرضه

بذلك لخطر قطع الطريق بينما المركبات التي تفرط في استعمال السرعة لا تعدّ.

كثيرة هي حوادث السير بالحي لغياب المهملات التي كانت ستساعد في تخفيف سرعة بعض السائقين المتهورين من لا متعة لهم إلا السير بسرعة جنونية، لا يفكرون ربما فيما قد يرتكبونه بجنونهم، فيندمون ساعة لا ينفع الندم، عادة ما كان عقلي في العمل وقلبي في البيت، لذا كنت أتصل بالجدّة دوريا للاطمئنان على صغيري.

من المكتب كنت أحيانا اتسلل خلسة لأغيب لفترة قد تصل الساعة أقصد فيها الحي أضل في السيارة أتفقد البيت، أرنوا للأطفال، ألحظ أحيانا صغيراي يلهوان رفقة أقرانهم، لا ألبث وأن أغادر نحو العمل أمنّي النفس لتلافي المدير وعصبيته، كنت أحيانا أرد على استفساراته بادعاء ابتياع عبوة ماء أو احضار الحبر أو الورق، قائمة مديدة من المصوغات أتفنن في ادعائها...

العمل والأسرة أجزم أنه من النادر أن يتأتى للمرء التوفيق بينهما العمل متطلب وأيضا الأسرة، أمّا وإن كانت الزوجة تعمل أيضا، فالأمر ليس سهلا بالمرّة.

كان جلول شقيق فيروز يجلس في شرفة شقته من على كرسي خشبي يطوق رقبته شريطًا يعلّق به منظارًا ليراقب به ما يدور بالحي؟ يرى الغاديين والآيبين، وكل من يجتاز الشارع يسدد نحوه منظاره الذي يراقب أكياس البقالة، المؤخرات، النهود، الأيدي، السيقان، السيارات، المجانين، طلاب المدارس، العشاق...

ذات يوم نهرته عن عادة اختلاس النظر تلك ملوحا له بيدي قائلا بتهكم ماذا تفعل يا جلول؟...إلا أنه تجاهلني.

بالمساء زرته وجدته يكتب محررًا يومياته لساعات مراقبته الحي.

بادرت لسؤاله أ هو الفضول؟ امتقع لونه شعر بالإحراج. صمت لبرهة زمّ شفتيه ثم قال: أنا شيخ ماذا يصنع في وحدته؟، أولاد غادروا جميعا وبقيت وحيدا، زوجتي تغادر إلى صالون الحلاقة وأظل طوال النهار بالبيت، تقاعدت من عملي منذ عامين لأجدن أقضي وقتي هنا بالشرفة. شيئا؛ فشيئا ألفيتني متورطا في حكاية المنظار.

صمت مديد ثم وجدتني أستمع لماضي جلول وطفولته الشقية أذكر أنه قال سأحدثك قليلا عن طفولتي وحكاية المراقبة لكي تفهم الحكاية... لم أشأ أن أحرجه فلقد رأيته يحب الحديث عن نفسه فتركته يفضفض...

عندما كنت صغيرا أبدو كالأبله غارقا في التفاصيل محدقا في الفراغ، أحيانا بشيء من التأمل أراقب حركة الطيور المهاجرة بينما رفاقي لاهين بمعاكسة الفتيات والتنمر، كنت أرتمي في حديقة المدينة بين أشجارها. أرنو للبركة الصغيرة أتابع حركات الطيور، كنت أجلس على قارعة الطريق أراقب السيارات أراقب لوحاتها وأشكالها وألوانها، ذات مرة لمحت سائقا لشاحنة من الوزن الثقيل مرّ من أمامي بينما يشرب من زجاجة النبيذ ويرمي بقاياها على الطريق، سائق آخر يرمي لفافات سجائر، وبقايا طعام، أطفال يرمون علكة من زجاج النافذة، لحظات يراها الآخرون أشياء تافهة لكني على العكس كنت أرى الحياة تكمن في التفاصيل الصغيرة.

منزو في ركن بالحي أشاهد عجوزا تفتش في القمامة بحثا عن خبز يابس لتطعم حيواناتها، قطيع كلاب يطاردون أنثى للتزاوج، قطط تبحث عن بقايا طعام دسم بالقمامة، شيخ يسير بتؤدة يتوقف بين الحين والآخر كي يلتقط أنفاسه، مركبة رباعية الدفع مسرعة، غبار متطاير، ذباب تحلق على بقايا فضلات، مجنون قضى حاجته أمام المارة.

"هلّا انصرفتم لشؤونكم"، كانت كلمات جارنا الذي فرق حشودا كانت تنهال على مجنون اعتاد قضاء حاجته في الشارع لا يبالي بالمارة. سكان الحي بين استهجان لما فعله وآخرون يضربون على أيديهم مرددين" طفح الكيل"، عُقد مساء اجتماع لساكنة الحي لاتخاذ قرار يرضي الجميع، المشاورات كانت تشير بإرسال الفاعل للمصحة.

لكن رغم قرار ترحيله إلا أنه لا يكاد يمضي شهر حتى يعود ليتجول ثانية في الشارع وملقيا فضلاته في كل مكان.

لست أدري ! لم راقتني حكاية المجنون الذي ما كان يؤذي أحدا باستثناء قضاء حاجته البيولوجية في الشارع كنت أتابعه وأتابع الكثير من تحركاته. لكن الغريب في تصرفاته في أحد الأيام اقترب قائلا: أنت يا صديقي لِم تراقبن طوال الوقت؟" شعرت بشيء من التوجس، في تلك اللحظة، أكان مجنونا حقا؟، كلامه أثار ريبتي، وشجعني إلى تشديد مراقبته ومتابعة خطواته بحذر.

جرى قرار ترحيله بسرية دون علم أهله حيث أركب الحافلة وبعث به لمدينة بعيدة. لم يكد ينقضي أسبوع حتى عاد لهوايته مجددا، وفي خطوة مشجعة كان قد تقرر إلباسه حفاضات الكبار، بيد أنه حلّ ظرفي لن يصمد طويلا .

كنت أكتب الكثير من الملاحظات حيث كان لي دفتر أسجل فيه الكثير من تصرفات أبناء الحي لذا كانت هوايتي المراقبة لأجل المراقبة، كنت مريضا بالفضول أسأل أسئلة تصل حد التفاهة لا أدري ! حقا لما كنت أراقب الناس، لكني ببساطة كنت أعرف الكثير من مصائب وأسرار وقذرات وحتى تفاهات الحي. مضت الأيام كنت لا أفعل شيئا سوى الاستمتاع بمراقبة الجميع. أ كان عطبا نفسيا ما أصابني؟.

كانت هواية المجنون تلطيخ جدران الحي بالغائط وكتابة عبارات يسب فيها أهل الحي، عندما تباغته نوبات الجنون كان يلطخ نفسه في مشهد مقزز بينما لا شيء يثني من عزيمته على القيام بعادته السيئة تلك، في وقت الكل غاضب من مجنون صار مطاردا من الصبية بالحجارة يتمكنوا منه تارة فيسيلون دمه، حتى صار دأبهم كلما يلمح من قبلهم يرجم حجارة، كان يختفي لفترة ثم يرجع للحي، يعاود الصبية مطارداتهم ومناكفتهم له، فاختفى دون سابق إنذار ونسيه الجميع باستثناء والدته العجوز التي كانت تحبه ولم ولن تنساه.

في جعبتي حكايات، ومغامرات مررت بها في حياتي ربما سأرويها لك يوما، ومعظمها مدون هاهنا في دفاتر يومياتي. قصص تحدث كل يوم.

أدركت أن جلول وحكاية الفضول وإختلاس النظر ترافقه مذ كان يافعا، كنت غاضبا أود الوشاية به لكن في لحظة ما ترددت. ماذا سأجني من وشايتي؟، لا شيء.

لقد رفض منحي نسخة من الدفتر، آه... لو أناله لربما يمكنني أن أعيد الإنخراط في الكتابة مجددا.

خطرت لي فكرة لِم لا أفعل مثله؟، سأبتاع منظارا وأجلس بالشرفة مثله أراقب. لم يمض وقت مديد كنت قد اشتريت منظارا واتخذت لي مكانًا بالشرفة أضع بطانية بالشتاء البارد أدفئ نفسي وأخبئ بها المنظار. كانت فكرة مجنونة وأنا لا يخطر ببالي إلا الجنون.

كنت قد دأبت طيلة أشهر على التطلع لأخبار الشارع، وجلول المتلصص مختلس النظر الذي كان يراقب الشارع والحي ويراقبن كم من مرة ألفيته يصوب أنظاره نحو الشرفة.

الفتور والضجر إنه عدوي الأول لا أستقر على شيء مضت الأيام ومعها تحدثني نفسي ماذا نلت بمراقبتي الناس؟. حقا لم أنل إلا وجع الرأس، فلا شيء كان يثير شهية المرء ليواصل هذا الجنون، كنت قد رأيت فتى يقبل فتاة، شيخا يواعد عجوز ويضرب موعدا لها ببيته، ألمح الجارة الغانية وزبائنها. كنت أرنوا للصوص إطارات سيارة بوعلام السمين في أصيل يوم صيفي حار، لمحت عجوزا ترمي نفاياتها أمام جيرانها، شاهدت أولادا صغار يهرقون في جوفهم بقايا علب الجعة المنسية في زاوية من أمام بيت الجار حمود بعد عرس ابنه. راقبت فتيات الحي وهن يواعدن أحبائهن من الشباك، اكتشفت من كان يتسلل لبيت صديقته، راقبت أزواجا وزوجات خائنات. أشهر غدوت فيها مريضا بقذارات البشر.

وحدها من تركتني محطما ذات صباح بينما كنت أمارس سفالتي حالما مررت المنظار صوب النوافذ لأتوقف بإحداها حيث لمحت سيدة تنزع ملابسها القطعة تلو القطعة. كم هي رائعة تبدو كتمثال مصقول أو كعارضات الأزياء ومشاهير البورنو لقد غرقت في التفاصيل والانحناءات والتموجات سرعان ما كنت مثارا... تبّا كانت تبدو شيئا بضّا طازجا على خلاف من يتزوج شبحا. أدرك أن من لم يتزوج امرأة جميلة كأنه لم

يتزوج حقًا. قد يرتبط بامرأة لكنّها تسدّ النفس، ومع مضي الوقت ربما يجد بها ما يرضي شبقه؛ لكن لن يلفي بها ما يرضي روحه.

الجمال أرزاق من الله؛ لكن لا ضير للمرء من أن ينتبذ زوجة جميلة، رجل تعيس ذاك من يتزوج امرأة أقل جمالا، فكأن به لم يفعل شيئا، غالبا سيعيش بألم يعتصره حتى وإن دفن رغبته بزوجة جميلة. سيظل يحمل شيئًا من الألم والندم سيرافقه فيما تبقى من حياته، بينما بعض يتخذون عشيقة أو يجرون خلف الغانيات الجميلات يعشقونهم بجنون ويشترون لهم الهدايا ويضاجعونهم بشغف أما زوجاتهم يعاشرونهم وكأنهم يؤدون واجبا فحسب. تبدو لي فيروز الآن كعجوز بشعة جسمها المترهل يبث في الروح ندمًا، ثم إن فيروز ماكانت على قدر من الجمال حتى وهي في زهرة شبابها.

كان جلول بالجانب المقابل يراقب النافذة متحسرا ربما من حياة بئيسة يعيشها. انتهت حكاية اختلاس واستراق النظر عندما وضعت الجارة ستارة تحجب بها الرؤية. أكيد انتبهت لنا ونحن نراقبها.

كان هناك شاب يبيع السموم من حبوب مهلوسة وحشيش بالحي كان يقف كل مساء عند عمود الكهرباء الإسمنتي يعبث بهاتفه في انتظار مركبات يمتطيها زبائنه المدمنون، كما ألمح الدرّاجات، الراجلين، نساء، مثقفون، ملتحون... يدردشون معه قليلا ثم يرمي ببصره بشيء من الحذر لدوريات الشرطة، ثم يشير بيده لصاحبه الذي يمتطي دراجة كان يحمل حشيشا أو مهلوساتًا، يقبض من الزبون نقودا يضعها بجيبه ثم يزوده سريعا بالسموم.

كان يجلس لبضع للوقت في مكان ثم يغيره. ما كنت لأكترث بحكاية بيعه للمهلوسات والمخدرات، ولا لن أرتدي ثوب المصلح الإجتماعي وما كنت لأنخرط في تحدي عصابات.

لمحت ذات مساء سامر يبتاع منه السموم، ما أثار حنقي سامر "التحق بالجامعة ليدرس لا أن يعود شابا متعاطيا للسموم". واجهته بالأمر فأصر على الإنكار مارست ضغطا حتّى انهار معترفا بمتعة الانتشاء، وبشي من التحدي ردد أنه ليس مستعدا لتركها.

كنت أودّ قطع مصادر تمويله بالمخدرات لكن الفتى غادر المكان قبل أن أتحرك ضده انتبذ مكانا آخر ليصرف بضاعته يبدو أن سامر ربما حذره من رغبتي بالوشاية به، سامر مازال يتعاطى السموم كما وجد له سبلا يسيرة في كل مرة ليبتاع الحشيش.

اكتشف معظم سكان الحي حكاية المراقبة، ذلك أن هناك من لمح المنظار ورآني أراقب شيئا ما. فاتحتني فيروز بالموضوع فتحججت بمراقبة حركة الطيور المهاجرة التي تأتي مع حلول سبتمبر وتغادر مع ارتفاع درجات الحرارة في الربيع. لم تنطل حكاية الطيور المهاجرة على الجميع، كما أن حينا لا تقيم به إلا إثنتان من اللقلق، واحدة على منارة الجامع وأخرى على قمة عمود كهرباء يتوسط الحي.

كان جلول قد توقف عن عادته السيئة بسبب وعكة صحية ألمت به ونقل على إثرها للمستشفى. كنت أردد في قرارتي وأمني نفسي يا ليتني أحصل منه على دفتر يوميات ذاك الذي كان يكتب بين سطوره

طوال الفترة الماضية حكايات الحي، ومعه راح ينهشني الفضول يشي أنه قد ألفي به ربما شيئا عن أسرتي .

زرت زوجته بالبيت طرحت أسئلة بشيء من اللّف، والدوران والحيلة فعرفت أنّ الدفتر ما يزال معه بالمشفى. لقد حملته معها بزيارتها له. عمدت إلى زيارته بالمشفى لأحاول مجددا ربما يزودني بالدفتر؛ لكن ما إن فاتحته بالموضوع حتّى سخر من حديثي ورفض فكرة أن يقاسمني معلومات ما خطت أنامله بالدفتر.

غادرت المشفى وأنا أشعر بالخيبة من عدم تمكني من نيل دفتر اليوميات.

أمضى جلول فترة بالمشفى إثر إجرائه عملية مستعجلة، وسمعت بخروجه لذا زرته بالبيت ومهدت لطرح موضوع الدفتر بيد أني ترددت بآخر لحظة.

بادر بإخباري أنه لن يكون هناك مزيدا من الجلوس بالشرفة، التدوين حصيلة سنوات من مراقبة جلول للحي تخلص منه بحرقه خشية وقوعه في يد قد تستخدمه في الابتزاز وخراب بيوت. توقف جلول إذن عن المراقبة.

رغم مضايقات فيروز والجيران إلا أنني اقتنيت صناديق حمام من السوق الأسبوعي للتغطية وبقيت على عادتي أراقب الناس متحججا برعاية الحمام، أتابع تحركاتهم بالحي، فانخرطت في صراع مع أطفال

كانوا يصطادون الحمام الخاص بي، يمسكونه ثم يقصون له ريشه، ويربطون جناحيه باللاصق لئلا يطير، ويعود إلى بيوته في الشرفة.

سيطر عليّ الشعور بالملل والضجر من الجلوس بالشرفة، مضايقات فيروز، حذر الجيران بعضهم كانوا يسيرون في دروب الحي بينما يسددون نظراتهم للشرفة، أيام وتنقضي سنة مذ أن بدأت حماقتي. كان حريا بي وضع حد لِم كنت أقوم به، في لحظة صفاء رميت المنظار وقررت اعتزال حماقة المراقبة. أراني غبيا للجلوس لساعات في الشرفة أبحث عن زلات الجيران. مضيت في التردد على الحدائق والمقاهي والساحات لأعيش حياتي بدل هوسي بمراقبة الحي. أسألني لِم لا أهتم بأسرتي ففيروز لست أدري ماذا تفعل الآن؟، سأنتشل ابني من الضياع، سأراقب سلوك سارة أيضا التي أخبرتني أمها أنها تكلم شابا في أنصاف الليالي بالهاتف. نعم سأهتم بأسرتي وكفى.

أحيانا لو يمنع المرء عمّا يحب لحارب الكلّ، لكن عندما يقتنع المرء باللا جدوى سيعفي المرء من أن يكره على ترك ما يحب، قناعة المرء سبيله لأن يسلم بالأمر.

كانت سارة انطوائية كتومة، بينما سامر غالبا ما يحكي مغامراته المدرسية، لطالما كان يرتمي على الكنبة ويغرق في الحديث عند كل مساء عن مغامراته اليومية كأن يقول: إن المدرسين كانوا يخيفوننا باحتجازنا داخل الخزانة في الفصل. أو المرور على بقية الفصول نحمل لافتة مكتوب على ظهرها تفاصيل حماقة المشاكس، حقا من المحرج أن يلف المرء جميع الفصول والكل يتحدث عنه بالسوء، تلاميذ، مدرسون لذا أيّ تلميذ يفكر بعمق قبل الإقدام على ارتكاب حماقة ما.

في كل فصل كان هناك طلاب فاشلون، مشاغبون كذلك أبطال إعادة السنة، وأيضا الفئة المدللة من فتية ناعمين، أو فتيان وفتيات أوليائهم أصحاب مراكز، كانوا يعاملون معاملة خاصة، كما أن هناك فئة من "اللصوص" يسرقون أدوات زملائهم، أيضا الواشون من لا يتوانون في عرض خدماتهم للمدرسين لينقلوا الأخبار والكواليس...

ـ سارة من ذا الذي تكلمينه؟.

ـ زميلي بالدراسة.

ـ لِم تحدثينه حتى لوقت متأخر؟.

ـ من أجل الدراسة أبي.

ـ يا سلام ولِم تحدثينه لساعات وفيما تدردشان، أراه ليس زميلا فحسب؟.

ـ كلا.

ـ ماذا إذن، تبررين كلامك معه بالهاتف؟. أ حدث شيء بينكما؟.

ـ كلا أبي... ما استحالت العلاقة لشيء من هذا القبيل.

ـ إذن هو زميل دراسة.

ـ صديق أو زميل الشيء نفسه.

ـ أيا من تدرسين معه يعد زميلا أي يجمع بينكما فصل به أساتذة وزملاء آخرون بينما صديق هي علاقة بين اثنين. الصداقة رباط.، لترد بقليل من التهكم

ـ لم أعلم أنك فيلسوف أبي !.

لا أدري كيف سأمسك أعصابي لوقاحتها. ما كنت لأمد يدي لأؤدبها لكن لم أعرف كيف امتدت يدي وصفعتها على خدها، سرعان ما انصرفت لغرفتها باكية، بينما فيروز لم تخف امتعاضها.

غادرت فيروز وسارة البيت غاضبتين نحو بيت الجد، بينما بقيت مقتنعا برأي لست مستعدا للجري وراء مصالحتها الفتاة أخطأت وأمها ما كان لها أن تحشر أنفها. سارة ستلفي مزيداً من الحرية لتفعل ما تشاء من حكايات العشق بين المراهقين .

راقبت لأيام بالسيارة خط سير سارة بلا شك انتبهت لي لم أر صديقها ربما حذرته. دعوتها ذات مساء للركوب للسيارة فرفضت وواصلت المسير رفقة صديقاتها أوقفت السيارة وخرجت مسرعا أمسكتها كمن يختطفها ورميتها في الخلف بينما راحت تهددني برمي نفسها.

كلامي كان واضحا... ابنتي فليتقدم زميلك للزواج منك وإن شئتما اليوم لكن حكاية العشق واللقاءات الحميمية مرفوضة تماما.

مضت فترة وجيزة اقتنعت سارة بكلامي أخيرا، وفهمت المطلوب منها تحديدا لا أدري! كيف اقتنعت بسهولة. لكن لجدتها تأثير على قرارات سارة؛ لأنّها أمضت فترة صباها برفقة جديها وكان لها دورا مهمّا في صقل شخصيتها؛ حتى وإن عاشت بعيدة؛ إلّا أن الجدّة ظلت تمتلك مفاتيح الوصول لها.

***

ـ ما ذا حدث؟ ومتى؟ .

ـ لا أدري! يا نادر.

ـ هل هو بخير ؟.

ـ بالعناية المركزة.

ـ اهدئي أخبريني ماذا حدث؟...

كان جلول بالعناية المركزة لأسبوع استفاق صباحا منزعجا من فشل مخططه في الانتحار لكنه ما فتئ يردد حكاية سقوطه عند إطعامه

الحمام بالخبز لذا ظلّ يردّد حكاية أنه اقترب من الحافة حيث كانت حمامة فمدّ يده إى أن إنزلق فسقط أرضاً، تردّد زوجته عن رغبته في الانتحار بينما جلول كان يتحدث عن سقوطه. ممرض كان سمعه بينما كان حانقا غاضبا لأنه فشل حتّى في إنهاء حياته، لا يرغب في أن يعيش مع الزهايمر، ولا أن يغدوا عالة، لا يقدر حتى على قضاء حاجته بنفسه دون مساعدة، لا يقدر أن يرى نفسه يعيش بحفاضات كالرضع. يدعو الله أن يموت بلا معاناة، لقد سئم حياته فعلا.

يجزم الأطباء أنها مسألة وقت فحسب ويقدم جلول على شيء مجنون، كان جلول حقيقة يعيش بنفسية مهزوزة يرفض وهنه، وضعفه.

وظفت زوجته جليسا يرعى شؤونه في غيابها كما يحدث عادة مع الأطفال الصغار وحكاية المربيات. كأن يساعده على التنقل بعربة المقعدين، وفي إطعامه، حكاية جلول وفواز كانت شبيه إلى حد ما بحكاية فيلم" Intouchables" "المنبوذون". فيلم درامي كوميدي فرنسي بطولة الممثلين فرانسوا كلوزيه بدور فيليب وعمر سي بدور إدريس، الفيلم مبني على قصة حقيقية لفيليب الرجل الغني المشلول الذي يملك ثروة طائلة يقوم باستئجار إدريس الشخص الفقير الذي يعيش على إعانات الضمان الاجتماعي ليقوم برعايته والعناية به...

كان فواز شاباً بالثلاثينيات، نجل صديقه، من سلوكه يبدو هادئا هدوء المقابر.

خبث جلول وسريرته الملوثة بالخطايا كانت تدفعه لتصديق شيطانه وليرسم له حكاية ووساوس عن علاقة العجوز بشاب أدخلته بيتها، طفقت الهواجس والشكوك تنمو بداخل رأسه، ذات مساء رنا بشيء من الغضب لزوجته المستلقية إلى جواره واستهل كلامه.

ـ كيف كان العمل؟.

أدارت رأسها بينما كانت تعبث بهاتفها .

ـ عجيب ! ما سألت قط عن العمل، أهناك شيء ما جلول؟

ـ فضول فحسب.

ـ هل تسددين مستحقات فواز؟.

ـ لم تطرح السؤال؟، أكيد أدفع له مرتبا كل شهر.

ـ متى تعرفت به؟.

...

جلول لِم تسأل هكذا أ هو تحقيق معي؟ ثم نظرت إليه بدهشة ملؤها الغضب...

حدّق إليها بشيء من التحدي ثم أضاف:

ـ ربما علاقتك به تتجاوز الحدود .

ـ صمتت لبرهة ثم انفجرت بوجهه. فواز مستحيل بم تفكر أيّ فكرة قذرة خطرت ببالك أيها الشيخ اللعين... إنه ابني بالرضاعة يا لعين

أنسيت أني أرضعته لشهر بينما كانت والدته نزيلة المشفى جراء أصابتها بمرض الصفراء؟ الخرف أنساك الماضي لكنه لم ينزع عنك وساوسك، سرعان ما انتفضت من السرير لم تتمالك نفسها باكية منهارة.

لم يملك جلول من القوة والقدرة ليلحق بها في لحظات كان في أشد الحاجة ليربت على كتف زوجته ويضمها لصدره معتذرا منها مخففا من صدمتها.

لا ضير للمرء بقليل من الحرص والشك إلا أن جلول كان مريضا بالوسواس المتطرف، طائفة الموسوسين أمثاله هم بشر متطرفون في شكهم. قلة هم من سيتخطون السنين ويلفون أصدقاء وأسرة تهتم بهم، البشر من طينة جلول هم مخلوقات أشبه بألغام لا تملك أن تنخرط بالمجتمع كما أنهم مخلوقات مسمومة تفسد أي علاقة تربطهم بالآخرين في النهاية سيعيشون وحيدين يدمرون كل شيء جميل نواياهم سيئة ووحده جنون الارتياب يفتك بهم. علاقة جلول بزوجته أصابها الفتور وأضحت باردة كجبال جليدية، وحدها تحية صباحية وأخرى مسائية ما يجمعهما.

قالت لي فيروز قبل أيام أن جلول لفرط مراقبته الناس صار يشك في كل شيء، قذرات البشر أحالته لإنسان يعيش بمبدأ الشك لا يثق بمخلوق. كان حقا مريضا بالوهم وفي طريق مفتوح لأن يفقد أعصابه، فأول الجنون كانت الوساوس والشك.

لم يعرف فواز ما دار بين جلول وزوجته. كان يأتي في العادة عند العاشرة صباحا يحمل جلول بعربته وينزله للشارع يجولان بالمقاهي، وفي الساحات العامة، المطاعم، التسوق. نشأت صداقة بينهما. لقد كان يشعر بالذنب، من حكاية نبتت وأزهرت بمخيلته. فواز كان كأي شاب حصل على شهادة جامعية بلغ الثلاثين ولا شيء يعرفه إلا إمساك القلم والكراريس والكتب. المشاكل والانطواء رمته فريسة للتعاطي ليرحل بالمهلوسات والحشيش ليقيم بين الغيوم سابحا في الانتشاء بعيدا عن واقع بائس بلا أمل. شبابه أفناه بالمدارس لينتهي به المطاف جليسا لرعاية شيخ ينال بسببه في نهاية الشهر مبلغا من المال يصرف جله على المهلوسات.

لطالما فكرّ فواز بحكاية مجالسته لجلول كان يدرك أن راتبه معلق بحياة جلول حين يموت جلول سينقطع المال الذي يناله. مضت الأيام وفواز لم يكلف نفسه عناء البحث عن عمل. يدرك أنّ أمله ضعيف في تحصيل وظيفة فالبيروقراطية والمحسوبية في كل مكان. جلول السبعين من يدري! ربما يكتب له ليعيش حتى المائة.

إلا أن فواز مع مضي الوقت ملّ من مرافقة جلول وتصرفاته الحمقاء وتنمره فجمع بعض المال وهاجر لتركيا ثم اليونان وانتقل بين دول البلقان، ليحط بإيطاليا لفترة وجيزة ومنها واصل رحلته إلى ألمانيا. استقر بها وتعلم اللغة الألمانية في ظرف قصير واشتغل فترة في المزارع وعمل أيضا بنشطات موسمية، كما تعرّف بفتاة وتزوج بها.

حكاية فواز ورحلته لأشهر بين دول أوروبا مغامرة محفوفة بالمخاطر كنت قد تواصلت معه وحكى لي يوميات رحلته التي وثقها بتسجيلات صوتية. وجدتها رحلة مؤلمة حزينة لشاب تحدى نفسه، من أجل أن يفر من اللا أمل إلى نسخة من جحيم أقل وطأة مما كان يعيشه. كان يردد قائلا: إن كان للجحيم درجات فأنا بهجرتي كنت أحيا جحيما أقل مرتبة مما عشت فيه ضياع شبابي. الغربة لا شيء أمام الجحود. الغربة أخف وطأة على النفس من الاقصاء والنكران. كان يردد هذه العبارة كثيرا مذ أن رحل لألمانيا، لقد وجد بها عزائه.

كنت قبل فترة أحسب الغربة أمرا سيئًا مؤلمًا، لكن أحيانا يعيش المرء في وطنه غريبًا، يعيش غربته حين لا يشعر بالأمان الوجودي، الغربة ليست فقط النأي عن الأوطان، الغربة شعور؛ شعور يبتلع المرء حتى وإن كان بين أسرته وأحبابه. لماذا معظم شباب اليوم ينتوي الغربة؟ فيما مضى كانت تسمى الغربة، أما اليوم أصبحت أقرب لمفهوم "الخلاص". بسبب واقع بئيس، دون آفاق؛ أحيانا مصطلحات انتظار غودو لصامويل بكيت، والما فيهاش، ومن أجل اللا شيء تبتلع المرء. بسبب الظروف السيئة، ودون رغبة من المخلوق الإنساني يستحيل لكائن عدمي، ينمو "سيوران صغير" في رأسه ويحتل تفكيره اللا جدوى. هذا التفكير أملته احباطات وانكسارات مثل كرة الثلج تصيب الإنسان. ليفتقد الشغف، ويذبل مثل زهرة لأن روحه قطفت من بستان الأمل ورميت نحو مواجهة مصير شاحب غامض. ليصبح إنسانا يرى الحياة بلون أسود أو رمادي كئيب.

أرتمي على الكنبة، أتصفح الجرائد أو أعبث بهاتف في شتاء بارد كنت قليل الخروج من البيت. لطالما أشعر أن عظامي باردة، فأحاول جاهدا إبقائي دافئا بينما فيروز تغادر صباحا وتعود بآخر النهار.

زفت سارة في الصيف عروسا حال نيلها الباكالوريا ارتحت من حكاية المراهقة وطيشها. سامر ما زال يدرس بكلية الفنون، تحسن قليلا لكنه غرق في تعاط المهلوسات. لا مزيد من رسم أطفال يبكون. ربما يرسم شيوخا يبكون. لقد رسم لي لوحة كانت متشحة بالسواد تفاصيلها جالسا بكرسي خشبي أبدو متجهما عابسا لا أعرف ما أسميها ربما الشيخ الحزين، قد تحل بنا لعنة ما؟ لا أدري! كانت تبدو لوحة جيدة. انشغل سامر برسمها طوال أسابيع. يبدو لي صار يدقق بالتفاصيل، رغم خبرتي القصيرة بالفن إلا أنها تبدو لوحة ناضجة. تشبه للوهلة الأولى لوحة الشاعر الفقير ولو أن الشاعر باللوحة كان مستلقيا بفراشه يبدو مكتئبا بينما لوحة نادر بكرسي بملامح متجهمة. لفترة وأنا مسمرا على الكرسي ألبس البدلة نفسها لغرض الرسم وحين أنهى رسمها علقتها بالمكتب لأحدق بها أحيانا وأحدث نفسي طورا. لوحة نادر كانت كئيبة حقا.

حكاية الصبي الباكي لطالما كانت هاجسي، أحيانا أسارع لأشغل بالي بشيء آخر من أجل طي صفحتها. لا أدري! إن شفيت من تبعات لوحة لعينة.

بيد أنّ الفضول ظلّ يستعر بي من فترة لأخرى، ذات يوم كنت منتظرا فيروز لأغذي فضولي، انتظرتها لساعات وما إن فاتحتها في الموضوع حتّى قالت لي: ما ذكّرك باللوحة الآن. لتحدثني في نهاية المطاف أن اللوحة ما تزال بالروضة ولم يحدث شيء، وأضافت قائلة: لا أدري! سبب هوسك بها؟.

في الغد نويت زيارة الروضة، ربّما ما أفعله ليس إلا ضربا من الجنون لا ألبث أن أعود أدراجي من منتصف الطريق. كمن استيقظ من تخدير الفضول. ليعود الفضول مجددا بالمساء، برغبة مستعرة في زيارة الروضة ليثنين صوت يرتفع برأسي، هكذا لأسبوع كنت أعيش التردد. وفي النهاية تغلبت على ترددي ومخاوفي فبشيء من الشجاعة وجدتني أقف من أمام قاعة الدرس مقابلا اللوحة وإلى جواري أصوات أطفال تبدو كصيصان دجاج.

يخطون خربشات، منشغلون بالرسم. صبي كان يرسم وجه رفيقه وآخر دبا، وهناك من يرسم شمسا سوداء يبدو تعيسا يرنو للدنيا بشيء من الإحباط أشجار لوحته بأغصان يابسة وأرض سوداء أيضا. سألت المعلمة بشأنه قالت: الولد لا يرسم عادة إلّا بالقلم الأسود. فتاة صغيرة كانت قد فضّلت رسم الصبي الباكي ولو تبدو رسمتها كحبة طماطم، بها عينين باكية. كانت إذن لوحة الطماطم الباكية. ثم دنوت صوب اللوحة

بتؤدة وتردد ارتفعت نبضات قلبي، حدقت بها للحظات. بيد أنّه لم يتحرك صبي اللوحة؟ !.

سرعان ما طردت الفكرة من رأسي. ودعت الأطفال وغادرت فصول الروضة إلى البيت.

وودت لو حملت رسمة تلك الفتاة ووضعتها في إطار وقلت: أنها لوحة الطماطم الباكية. أنا وفيروز كنّا نحبّ الطبيعة والأشجار، تملك زوجتي حامل مفاتيح على هيئة شجرة، على العموم في البيت أشياء كثيرة لها صلة بعالم الأشجار والنباتات ضف إلى ذلك أنّ لوحات الأشجار تزين جدران الروضة، كما تعلق أكثر من لوحة لمناظر طبيعية وأشجار في غرفة النوم، المكتب، المطبخ، أكثر اللوحات التي تحبها لوحة الصفصاف الباكي، لا أدري لم كل شيء يتعلق بالبكاء أراه أمامي في هذه الأيام؟، لم تثرن لوحة الصفصاف الباكي أكثر ممّا أثارني تاريخها في الميثولوجيا، أذكر مرّة أن فيروز كانت قد أخبرتني أن شجرة الصفاف في الأساطير السومرية لها تاريخ حافل؛ تذكر الأسطورة أنّ "إنانا" استنجدت بجلجامش، ذلك أن المتآمرين كانوا يسكنون شجرة الصفصاف التي زرعتها. شجرة أحبتها إنانا وأرادت أن تكون عرشها، ولكن التنين أفسد الأمر، وسكن جذور الصفصافة، وقبعت «ليليث» ملكة الليل وجنيّته المجنّحة الشريرة في ساقها لتسكن فيه أيضا. وزاد الطين بِلَّة؛ أن الطائر المخيف "إنذو" كان قد أخذ له مكانا على أغصانها. ولكن البطل جلجامش هبّ لنجدة إنانا وقتل التنين، فترى ليليث المصير الذي حل بالتنين فتلوذ بالفرار، ويهرب الطائر أنذو من بطش جلجامش.

وبقوته يخلع جلجامش شجرة الصفصاف من جذورها ويُقَطِّعها مانعاً عودة الأعداء إليها. ثم تغدو لدى جلجامش وصديقه الحميم "أنكيدو" عداوة شديدة ضد حارس الغابة، فيقتلانه، ويقطعان أشجار الغابة..

أما الصفصاف الباكي فقد سمي بهذا الاسم من شكل المطر الذي يشبه الدموع عندما يقطر من الفروع المنحنية، إنّه ذو فوائد عظيمة طبياً ذلك أنّ الألماني "فيليكس هوفمان"، قد اهتدى في عام ألف وثمان مائة وسبعة وتسعين لصنع من أوراق أشجار الصفصاف دواء يعالج أمراض تخثر الدم، وأمراض القلب، كما يمنع حدوث الجلطات، ينتج من الصفصاف سنوياً ما مقداره خمسين ألف طن من حبوب الأسبرين، أي ما يقارب خمسين مليار حبّة سنوياً.

***

بالحي كانت هناك قطعة أرض يستغلها شاب كحظيرة سيارات، كنا سنشي به للبلدية إن رفض مشاركتنا جزء من الفضاء وكان يعلم أن لنا يد نافذة في الأمر لو شئنا عقابه لخرج خالي الوفاض حصلنا على النصف بينما سيظل النصف الآخر مستغلا من قبله، وجدت ما أشغل به وقتي قطعة الأرض استحالت لحديقة جميلة مسيجة بها مقاعد إسمنتية نهتم بنظافتها، لا أحد يجرؤ على العبث بها. أمضي يومي رفقة شيخان هما ياسين وحسان كانا صديقان. صداقة سنين مديدة، ياسين كان يعمل ممرضا نال تقاعده قبل فترة وحسان كان مدرسا، بحديقتنا

نجتمع نلعب الدومينو لينضم لنا شيوخ آخرون. لقد صار المكان معروفا باسم نادي الشيوخ.

الحديقة ممنوعة على أولئك الشباب الحمقى من يهفون لجعلها وكرا للتعاطي والسكر، كنا نطرد أي عابث بنظافة وهدوء الحديقة، بعض الأوغاد يصمون آذانهم ويتجاهلون تحذيراتنا وتنبيهنا ما يتسبب باعتقالهم من قبل رجال الأمن وفي عهدتهم أشياء ممنوعة. بسبب إعتقال الكثير من المتعاطين والسكارى مع مضي الوقت أدرك المنحرفون تعريض أنفسهم لخطر المداهمات. بينما الحديقة بالليل هي في عهدة حرّاس الحظيرة.

لطالما كان ياسين يحدثنا عن مغامرته بالمشفى طوال ربع قرن قضاها ممرضا، وحسان بفرح غامر يسرد يوميات ثلاثين سنة في مزاولة مهنة التدريس.

وحدها فيروز من يقطع لي بهجتي برعونتها، لطالما كانت بشيء من الإبداع تمارس النكد وها هي ذات صباح تتصل بي لتخبرني أن قاعة التدريس بالروضة شبت بها النيران. لحسن حظها أن الأولاد كانوا بحديقة الروضة للاستراحة، لا أدري! أهي حكاية الطفل الباكي ونحس ما زال يطاردنا، لم يمض أسبوع من زيارتي للروضة. هل كنت نحسا؟. حين أجتمع باللوحة، لقد فكرت على هذا النحو لوهلة.

لم يمس الحريق اللوحة، ذلك أن الحراس بمطافئ الحرائق أمكن لهم السيطرة على الحريق في وقت وجيز. أكان من الغباء تصديق حكاية

لعنة أماديو؟، يا إلهي لست أدري؟. اللوحة بين يدي الآن، فيروز ترفض بقائها بالروضة، فكرت بحملها معي للبيت إلا أن فيروز كانت ترفض الفكرة أيضا.

رميتها أمامي أحدق بها كالأبله، هل سأتخلص منها ومن جحيمها؟ إلّا أن هناك شيء ما يحول ويمنعني من الإقدام على إتلافها ربما هو خوف أجهل كنهه. أفكر أحيانا هل كنت خائفًا من لوحة؟. أكانت حرائقها مبررة؟.

مضت أيام، وتأكد للمحققين أن حريق قاعة التدريس بالروضة كان بسبب ماس كهربائي لا أكثر.

رميت اللوحة في العلّيّة بعيدا عن أنظار فيروز. بيد أن زيارة لسارة، وتفتيشها بحثا عن أشياء تخصها فحملتها معها ولم أعرف الحقيقة إلا بعد أيام حين زرتها ببيتها ورأيتها معلقة في الرواق بشقتها. مع لوحات أهداها لها شقيقها سامر؛ لوحات كانت منتشرة في المطبخ وغرفة الاستقبال، بشيء من القلق يسيطر على بالي صرفت سارة بحجة طلبي ماء وأقدمت على انتزاع اللوحة وحملتها معي.

أتسكع في شوارع المدينة لا يشغل بالي إلا الخلاص من اللوحة. طفقت تداهمني أفكار ووساوس إلى أن إخترت إحدى مكبات النفايات التي توقفت أمامها، حملت اللوحة ورميتها في المكب بينما يغمرني شعورا بذنب ملؤه خوف؛ خوف من انتقام اللوحة !.

ركنت السيارة أمام العمارة وصعدت السلم بوهن ثم دخلت بيتي ومن سريري الذي رميتني فيه لففت رأسي بذراعي وطفقت أجترّ ما حدث معي، وأحاول مراودة النوم فلطالما كنت أعالج خيباتي بالنوم من أجل نسيانها.

بينما كنت أمنّي نفسي بالنوم، طفقت استرجع بعض لحظات من طفولتي لذكريات طفت بذهني أذكر منها علاقتي السيئة مع الكلّ، ما كانت تربطني أيّ مودّة مع بقيّة أشقائي. كنت أشبه إلى حد بعيد بطائر صغير ضعيف لا يحصل على شيء من أمام بقية إخوته، بالنهاية يرمى خارج العش لينتظر مصيره الموت أو الافتراس من قبل حيوانات جائعة بانتظار إلتقاط فريسة تخفف من جوعها.

قال أخي عباس يوما:

ـ لم لا تقف هناك عند الزاوية؟.

بغباء طافح مشيت حيث طلب أخي، وما إن وقفت في المكان الذي طلب مني الوقوف به حتّى راح يسدد بيضا بمباركة وتواطؤ بقية إخوتي وأصدقائهم بشيء من الخوف لم أملك أن أتحرك ولو لخطوة، وضعت كفاي على وجهي وطفقت حبات البيض تتساقط، بعضها يصيبني والآخر يصطدم بالجدار ويسقط على جسدي بينما عباس والآخرون يضجون بالضحك. ياه... لقد كنت لعبتهم المفضلة وحدها "جميلة" التي ندلعها فنطلق عليها اسم جوجو، جوجو ذات الشعر المنكوش والفتاة القمحية النحيلة تبدو بسلوك وهيئة الأطفال الذكور تهجم على عباس والبقية

بكيس من الطماطم وتتوارى مي أمام عربة حمار الجدّ مقداد بينما تواصل قذف حبّات من الطماطم ليلطخ لباسهم بينما وحدهم ساقيها يسعفانها هربا منهم. كانت سريعة بقدر يجعل منها ملكة الفرار دون أن يمسك بها أحمق كعباس وشلته، أحيانا ينصرفون حفاظا على كبرياء طفولة ينشد كبرياء رجولة أمام فتاة وحدها هزمت ثلة من أطفال يتوعدونها بالنهاية بالسوء؛ بيد أنه ما كان ليجرؤ على تنفيذ وعوده ينظر نحوي أخي عباس بنظرات حادة ليقول لي :" أنت ولد جبان. لا فائدة نرجوها منك لن تصلح حتّى لأن تكون فزاعة تخيف العصافير، والطيور في حقل أبي، لا أدري! كيف أنجبت أمي فتًا جبانا؟". عادة تمدّ جوجو ذراعها لي بلحظات كنت منكسرًا، محطمًا، وحزينًا.

لطالما كنا نستلقي على العربة ونلفّ رؤوسنا بأيدينا لنمضي وقتنا مستغرقين في متابعة الطيور، التحديق للسماء ...

كما كنا نرافق العجوز مقداد لجمع الحليب في الصباح الباكر قبل أن نعود بالمساء حاملين معنا حليبا طازجا رغم أننا لسنا بحاجة للحليب إلا أننا نقدم في النهاية على بيع حصتنا لنشتري قطع الحلوى من دكان القرية.

كانت جوجو حفيدة مقداد فتاة لا تملّ من تحطيم غرور عباس الذي كان يجعل من نادر تسليته المفضلة، ذات مرة أخبرني بكراهيته الجبناء، ولا يحب الخائفين حتى وإن كنت شقيقه.

لم أكن لأخاف من عباس بل؛ أحسبه مخلوقًا متعجرفا، متسلطا مع إخوتي الذين ما فتئوا ينفردون بي لمناكفتي، يحاولون بالعادة إغراقي في البرك، يسطون على حصتي من حلوى كان يشتريها والدي؛ بل أعترف أني كنت تسليتهم المفضلة.

رمت جوجو ذات مرّة على رأس عباس حجرا من نافذة البيت العلوية بينما كان يمسكني من قميصي المقطع لفرط تمسك عباس به بينما ينثر قاموسه من سباب ثم صفعني صفعة سريعة انتبه لها كل من كان قريبا. الصفعة لم يهنأ بها مديدا، فما إن وجد الدم يسيل من رأسه أطلق سراحي وراح يجري باكيا ممسكا رأسه الدامي، دخل عند جدتي التي أرعبها مشهده بينما كان مضرجا بالدماء. سارعت في رمي حفنة بُن على رأسه وانتزعت مناديلاً تتعصب بها ولفتها على رأسه. وراحت تمسح على يديه وتنظف له مخاط أنفه بيدها. بينما كانت تتوعد جوجو على ما ارتكبته؛ لكنّها بالحقيقة تهدأ من روع عباس فحسب. كاد يستحيل البيت لحلبة صراع بين أبي ووالد جوجو. لكن بالنهاية يدرك أبي أن جوجو تدافع عن الجبان نادر، كان أبي يضرب على يديه وينعت عباس بالجبان ويردد أحيانا" أنتم الإثنان جبناء وعباس أجبن الجبناء وليس نادر".

ما كانت جوجو تملك سحرا ولا قوى خارقة تبديها بالوقت المناسب؛ بيد أنها كانت تحمل من الدهاء والخبث والسرعة ما يجعلها تفوز بالعادة بصراعها مع عباس. الخالة مليكة كانت تخبر عباس بوجوب أن يغلف

رأسه الصغير، الغبي بالخبث حتى يحطم جوجو. الأنثى لا تحب الأنثى ببساطة هكذا كانت علاقة مليكة بجوجو.

مضت أشهر ما عاد عباس يمدّ يده ليضربني؛ بل ما عاد يكلمني حتى، كان يدرك أن نادر يملك حارسا ملاكا.

كان أخي عباس يتصرف أحيانا على نحو غريب كجلوسه منتصبا لساعات ملتصقا بعمود كهرباء يراقب الطيور والعصافير والحمام منتظرا بفرح غامر تلطيخ ثيابه بفضلاتها سعيه كان حد الهوس، رغم حرارة الشمس صيفا والبرد شتاء، إلا أنّه كان سعيدا بما يلوث ألبسته من فضلات الطيور.

لم يمض وقت مديد حتى؛ صار استغلال أعمدة الكهرباء حقا شرعيا من اختصاص من ينهض باكرا لتسابق على من يفوز بحق الجلوس تحت عمود الكهرباء الإسمنتي. بسبب ما سمعه عباس عن شائعة تشير إلى أنّ من يصيبه طائر ما بفضلاته، فأل جيد وسيفتح أمام المرء أبواب الحظ والسعادة وسينال كل ما ترغب فيه نفسه. توقفت نشاطاتنا وإعتزلنا كرة القدم وإعتزلنا التسكع في سبيل التقاط فضلات الطيور كحراس مرمى.

كان البعض يتباهون بفضلات الطيور بينما تغطي رؤوسهم وألبستهم. إلا أن لا شيء تغير نعيش البؤس ولا ننال في الأخير سوى مئات الشتائم عن نفسي من أمي، والمارّة. كنت أشمر ياقة القميص على أذرعي ومغطى برغوة الصابون تنظيفا لملابسي أنصاف الليالي، ضريبة

التنظيف أدفعها عندما تعاقبني أمي برفضها تنظيف ملابسي المتسخة بفضلات الطيور.

" هل انقرضت جميع الألعاب لينتظروا لطخة طائر؟". تضرب على يديها وتواصل المسير. من سيدة مارّة صدفة هالها منظر صبية كأنهم مصلوبون على أعمدة الكهرباء، كلام منطقي لا يختلف عن كلام بعض من سكان القرية بيد أن أمي كانت تغالي، معلقة أنّ لوثة أصابتنا بالجنون، وإلا كيف خطر ببالنا إنتظار فضلات الطيور.

بعمر الحادية عشرة انطفأت جوجو كشمعة، شبح الحصبة زار قريتنا وسرق كثيرا من فتيان وبنات القرية جوجو كانت أكثر من قريبة جزء من كياني لقد استيقظت ذات صباح وأنا أقف عند قبر صغير بربيع ما كان ليشبه الربيع في شيء، ربيع شاحب بلون التعاسة حقا. ألا يستحيل الربيع أحيانا شاحبا ممّلاً كخريف باهت؟. حملت طاقة ورد كنت قد جمعتها بدموع تنساب على خداي. وضعتها بيدان ترتعشان على شاهد قبر جوجو . الفتاة المرحة جوجو قطفها الموت بفصل ربيع ممّل. ما عدت أحب الربيع منذ وفاة جوجو. تبّا لربيع سرقت فيه جوجو. مضت السنوات وما زلت أحنّ لذكراها، فقد دأبت عند كل زيارة لقريتنا على الذهاب لقبرها الصغير، ما زلت أستحضر كثيرا من لحظات جمعتنا، كم أتمنى لو أرجع بالسنوات قليلا، حتى أشبع من رؤية جوجو. أغادر المقبرة وأنا أردد وداعا جوجو؛ وداعا يا قلب جوجو الصغير ما أحب، كما أحب نادر، أحيانا الحب يزرع في قلوبنا ونحن يافعين ليحصده موت

على غفلة منا، وبحيل حياتنا لجثة بلا روح تحيا تيها في دنيا بائسة، ويبدو معها كل شيء شاحبا بلون التعاسة وبطعم مرير.

في الموسم الصيف ذي الحرّ الشديد. بمناخ جاف تبدو الأرض كفرن لِم لا يذكر في النشرة الجوية أن مدينتنا صيفا درجات حرارتها تتخطى الخمسين ليعلنوا المنطقة منكوبة وانتهى الأمر، التجول لنصف ساعة في حرارة منتصف النهار تكفي لأصاب برعاف، أو ضربة شمس. من الساعة العاشرة وحتى الرابعة مساءً يغدو التجول أو العمل ضربا من الجنون، عادة ما كنت أمنّي نفسي لو يخترع العلماء مظلة عملاقة أو مكيفا بحجم ملعب كرة يقينا الحرّ.

كنا لا نتوانى في إطفاء لهيب الحرّ عبر الاستحمام في البرك ومستنقعات أنهت إحداها حياة عباس ذات صيف، الفارق بين جوجو وعباس أشهر قليلة، لقد خسرت شقيقا وجوجو الفتاة المرحة ربما كان سيجمعنا القدر زوجا وزوجة لو لم ترحل باكرا. فيروز الغبية كانت تدرك حكاية جوجو. ربما كانت غيرتها من جوجو حتى وهي ميتة. كم انتابني غضب من فيروز بعد ولادة فتاة. كنت أفضل تسميتها جميلة وأدلعها بجوجو بيد أنها سارعت لتسجيلها باسم سارة. وودت لو تحمل ابنتي اسم جميلة. ليضل اسم جميلة محفورا لذكراها. لن أنساك يا صغيرة لقد كنت رفيقة رائعة وها أنا سأتذكرك كل ما حلّ موسم الربيع أرى صورتك في كل الورود. كم تمنيت لو أن الحصبة فتكت بي حتى نعيش معا ونموت معا. هي أقدار الله. كانت جملة ألفيت بها العزاء فلطالما كان يحدثني مقداد بعد أيام من وفاتها. ويكررها على أسماعي "هي

أقدار الله يا بني" بعينين تفيض دمعا. كنت أرافقه بالعربة يوما بعد يوم وحالما ينهي عمله نتحلق من أمام القبر الصغير ليقرأ الفاتحة بصوت خفيض على روح جوجو ثم يكفكف دموعه ونغادر مقبرة القرية يغمرنا الحزن ويلفنا الصمت لنلتقي في اليوم الموالي ونجدد الزيارة لقبرها. ظل الجد مقداد لا يغيب عن زيارة قبر جوجو حتى فاضت روحه ذات يوم، وكان قد أوصى حين اشتد به المرض بأن يدفن إلى جوار حفيدته.

لقد بقيت أزور كلا القبران، لم أنس جوجو، ولا أظن أني سأنساها يوماً، إنها نزيلة أبدية في قلبي.

"معًا لحي أكثر نضارة ". كان شعار حملتنا للترشح لرئاسة الحي وتأسيس جمعية. كانت في المنافسة ثلاث قوائم، قائمة بها شباب جامعيون، وأخرى نسوية، وقائمتنا نحن المتقاعدون، لعلّ ما سيشفع لنا ربما بالتصويت أنّنا كنّا متفرغون بخلاف القائمتان المنافستان اللتان كان بها طلاب وموظفون وربات بيوت. كنّا نهاجم الشباب الجامعيين في خطاباتنا الشعبوية، لأنّ الطلاب منشغلون بالتحصيل العلمي والتدريس بينما هؤلاء ربات البيوت لهنّ ما يشغلهن، هل يتركن المطابخ، ورعاية الأطفال للتفرغ للاهتمام بشؤون الشارع والحي؟ التفرغ عامل حاسم في برنامجنا؛ ليحقق الفوز بنسبة كبيرة. لكن والحق يقال: أنّى لشيخ كحالنا في الوقت البدل الضائع للأشواط الإضافية من عمره بلغة كرة القدم قادر على التسيير ، كنا شيوخًا متقدمون في السن، منّا من كان قريبا من الخرف، أفكاره قديمة يرى الحياة بلون أبيض وأسود فحسب. شيوخ مثلنا مكانهم المتحف، مكانهم الراحة والاستجمام، لا تسيير مشاكل حي، نحن الشيوخ بتصدرنا المشهد نحطم طموح الشباب اليافع. نحن شيوخ أكثرنا يرفض التغيير ومواكبة العصر.

كان يوم التصويت حافلا مثل أيّ انتخابات لقد مضى التصويت في هدوء وشفافية ثم بالمساء فتحنا الصناديق وفرزت الأصوات وجاء ترتيبنا الأول بعدد الأصوات، نلنا ثقة وأصوات أغلب المصوتين، بينما قلّة كانت متذمرة لم تعجبها النتيجة بيد أنهم لم يلفو بدًا من التسليم بالصندوق.

ياسين الرئيس أنا وحسان ولطفي وآخرون أعضاء جمعية الحي وتوزعت أدوارنا بين النائب الأول والثاني، جعلنا من الحديقة مقرا، أولى مهامنا كانت تنظيم مواعيد إخراج القمامة، فبسببها قبل فترة جرت مناوشات بين السكان، كلطفي الذي عاد ذات يوم من جولته سقط على رأسه كيس زبالة من الطابق الرابع، اعتمدنا على المناظير لنراقب كل من تسول له نفسه رمي الأكياس من الشرفات، من ربّات بيوت حمقاوات، اللاتي لا يتوانين في رمي الأكياس، هناك من تجرأت على سكب مياه الغسيل من البلكونة. حجتها انسداد شبكة التصريف بالبيت، إمساك فواتير الكهرباء، والمياه، تنظيم الأعراس والجنائز، لا أدري! بم سنستفيد نحن بممارستنا الغبية دور متعهد حلّ المشاكل؟.

ـ لِم لا ! تنظم لنا يا خالد أنت محامي، ونحن بحاجة لك بالجمعية.

ـ كلاّ شكرا...

قال حسان لياسين:" دعه لقد أضحت وظيفته حمل حفيدته، جليس أطفال فحسب؟". لترتفع الضحكات الساخرة، ثم أضاف: أرى أنه لو كنت تملك أثداء لأرضعتها، دع الفتاة لأمها يا رجل.

ـ قال خالد: حل المشاكل سبيلكم، بينما أرى أنكم جزء من العقبات بغبائكم اللامحدود.

يردد وائل ابن ياسين.

ـ محق أنت عمي خالد.

قال ياسين: "اصمت وائل".

ردّ حسان:" دعه يتكلم ومن يبالي بالمعتوه".

وائل الشاب المثقف الهادئ، أنهى تعليمه الجامعي من سنين مضت وما يزال دون وظيفة مثل الكثير من الشباب المتعلم، صار ينام في الحدائق والمتنزّهات هروبا من نفسه حتّى. الكلّ يجمع على أنّه أصيب بلوثة في عقله. غدا صامتا قليل الكلام إلى أن ساء حاله رويدا، رويدا. يعتقد ياسين أنّ مسّا شيطانيا أصابه، وعبث برأسه.

نفض خالد بدلته بكبر، وحرّك إصبعه قريبا من رأسه مشيرا إلى أنّهم مجانين، وغادر مسرعا، أحس بشيء من الغضب ياسين في وقت كان وائل مستلقيا بين البرسيم ليقذفه ياسين بقارورة ماء، وراح يكيل له الشتائم.

قلت لياسين: ما حكاية وائل، أ هو معتوه حقا؟، صمت للوهلة الأولى ورفض التعليق؛ بيد أنّ حسان دخل على الخط ليفيض كنهر، ويحشر أنفه في حكاية وائل؛ لكنّ ياسين بدا غاضبا، وممتعضا من حسان. أدار رأسه يمنة ثم يسرة، تنهّد عميقا. ثمّ قال:

كان يصلي ويصوم قبل أن يختفي لأسابيع ويعود معلقا لصليب برقبته، تنصّر الولد، الغضب لفّنا جميعا، ولم أجد بدا من طرده. كل المحاولات باءت بالفشل لثنيه و ردّته. غادر البيت لشهر ثم عاد وقرر أن يعود مسلما، في كل مرة يعتنق دينا جديدا حتى أنه فكر في أن يصبح بوذيا. ثم أعلن كفره بجميع الأديان ليردّد بعد ذلك أنّه ملحد.

نظرت لوائل. ثم قلت: أ ما زلت ملحدا؟. لم يرغب بالإجابة صمت للحظات ثم قال: أنا لست ملحدا.

ماذا !. مسلم، أم مسيحي أنت؟...

ـ لا أعرف !...

ـ أما قيل أنّك ملحد؟.

ـ لا. أنا إنسان أعتنق الإنسانية.

ـ أ كان دينا جديدا أم مذهبا جديدا؟.

ـ كلا الإنسانية... كيف أشرحها لشيخ مثلك.

ـ ماذا نحن كفار إذن؟.

ـ كلاّ لم أقل إنّكم كفار.

ـ عابث أنت، وتدين بدين العبث.

ـ ...

ـ هروبك يا وائل من الإجابة يسيء إليك فحسب بإجابتك تلك، كثير هم الملحدون من يرددون الكلام نفسه هل المتدينون متزمتون لا يراعون مشاعر الإنسانية؟ لا أنت ضال يا عزيزي. أجل هناك متدينون يسيئون وخطاؤون. يا عزيزي وائل الإنسانية بذرة في قلب كل إنسان. الخير والإحسان لجميع خلق الله؛ لكن أتمنى أن تعود لصوابك.

كان وائل شابا مضطربا بشخصيته الغامضة ذا تصرفات غريبة يبدو لي إيمانه بالحياة زعزعته ظروفه السيئة، كان منزعجا لم يقوم به أشباه المتدينين يرى مسلما يزني ويسرق ويغش أو يظلم الناس... يجعله يحكم على الجميع بالنفاق والسوء، في الحقيقة السيء لا يمثل إلا نفسه، ربما يشبه وائل ممثلا في إحدى تمثيلياته الهادفة طلب من المخرج الانضمام للمشركين من أجل الأكل مفضلا الكفار على الإسلام، نعم الحكاية حكاية تمثيل لكنها تمثل إسقاطا حقيقيا لِم يمكن أن يكون بالحياة. أما قام رجال الدين في الماض بإغواء الفقراء والمحتاجين بالطعام والمال للانضمام لدين يدعون له. حتى أنهم وزعوا صكوك الغفران، وائل ربما لو وجد عملا ونال مرتبا لما كان ربما فكر بمثل ما فكر.

ما جرى مع وائل تلخصه جملة. الفراغ يملأه العبث. كما أن البعض يحب جلب الاهتمام لنفسه أو ينطبق عليه المثل الشعبي "خالف تعرف" المحرّف من مقولة الشاعر الحطيئة "خالف تذكر"...

نسعى لحلول مشاكل وعقبات الحي، بينما مشاكلنا بلا حلول، وائل مع البطالة، وسامر المتعاطي. كان البحث عن عمل لوائل قد تصدر اهتمامي، سألفي له عملا يشغله بدل اشغال نفسه بالعبث.

فكرت مليا بترك الحي وحكاية جمعيته ووصلت لقرار حان الوقت الانسحاب. يبدو أنني أصحو غالبا متأخرا من حماقاتي.

***

أثار حفيظتي وشم سامر أنّى له أن يوشح ذراعه بفتاة بيد وبيد رسم طفلا باكيا يشبه طفلا من لوحات فتيان الغجر التي رسمها جيوفاني براغولين فمجموع اللوحات التي رسمها سميت بلوحات فتيان الغجر من قبل النقاد رغم عدم وجود ما يربطها بالغجر إلا أنها سميت بهذا الوسم فتيان الغجر. وودت لو اقتلعت الوشم من ذراعه منذ أن ابتعد عن البيت ودراسته بعيدا أفلت من مراقبتي، كان يتناول الأدوية المهدئة والمخدرات بشراهة، والعبث، ورفاق السوء، وشم ذراعه وبقية جسده كان يبدو مثل أفراد العصابات أو الإيمو وغيرهم ممن يوشمون أجسادهم بإفراط، كنّا ننخرط في شجارات شبه يومية. كان يتحداني ويتحدى أمه، لا ألتقي به إلا لدقائق تغدو مناوشات ثم ينصرف من أمامي سريعا. كان يغادر البيت لأيام ثم يعود متسللا أنصاف الليالي لئلا يقابلني.

ذات مساء غادر غاضبا بعد أن تطاول وهمّ بضرب والدته إلا أنه انسحب من أمامها حال صراخها بوجهه، كان قد تمادى بطلب المال لشراء المخدرات. طال غيابه فخرجت للبحث لعلي ألفيه يسيح في منكراته جلت جميع الأماكن التي اعتاد التردد على زواياها، كما طرقت جلّ الأماكن السيئة قبل أن أتلقى اتصالا كان يطلبني للمخفر دون تقديم تفاصيل، ثمّ إلى المشفى...

بكيت وما عساي أفعل غير البكاء، حين وجدته مرميا بالمشرحة في ثلاجة الموتى كان شاحبا ببشرة بيضاء، وشفاه زرقاء وذراع تبدو بها أثار رباط عند الساعد بها فتحات صغيرة للحقن كانت حقن الإدمان.

تقرير الطب الشرعي كان قد أثبت أن وفاته بسبب "أوفر دوز" جرعة زائدة ... مضت أيام على دفنه وأمسك برفاقه الذين اعترفوا بالنهاية بتعاطيهم الممنوعات.

كانت والدته تلقي كل اللوم وتكيله لي متخذة حجّة مفادها بدل رعاية البيت انصرفت للتصابي مع شيوخ حمقى نستلقي بالحديقة نمارس النميمة ومراقبة الحي. كنت هادئا أرفض الانخراط في شجار معها، أو أذكي لواعج أحزانها، لن أتحداها، ولن أنكأ جرح فيروز الملتاعة؛ سأمتص غضبها، وسأهفو لأطفئ نارا تستعر بقلبها، لذا أحمل نفسي المسؤولية كاملة أمامها.

بذلت جهدا لاستعادة علاقتي مع فيروز بعرضي المتمثل في السفر للسياحة؛ لكنّها رفضت، فخطر ببالي تسجيل اسمينا للعمرة، وأخيرا وافقت، زرنا البقاع المقدسة وأمضت فترة هادئة مقبلة على الحياة، وما إن رجعنا للبيت حتّى نسجت حولها شرنقة من الوحدة، والعزلة ثانية.

تميل للجلوس وحيدة، وتستيقظ أنصاف الليالي أحيانا صارخة من كوابيس مزعجة. تفتعل شجارات معي، والمارة، سريعة الغضب، نصحتها بزيارة معالج نفسي فثارت بوجهي.

لكن بالنهاية رضخت لفكرة زيارة معالج نفسي، ظلت تتردد على عيادته لفترة؛ لكنها لم تتحسن، تثرثر كثيرا، وتتناول مهدئات تجعلها ذابلة.

إختفت ثورتها وقلقها النفسي الحاد في حين استحالت لمخلوق وديع بلا تعابير مستسلماً مثيراً للشفقة. العلاج النفسي أخمد شغب فيروز، لم أك أنتظر أن تغدوا هكذا منكسرة النفس، بليدة.

ربما الزمن وحده كفيل بترميم شيء منها، فالزمن كالتراب للنار يطفئ لهيبها، والنسيان بمثابة بلسم ننشده معا، نسيان لا يعالج الجروح؛ ولكنّه يخفف وطأة الألم الذي يسكننا.

عزاءنا أن نصطبر، لا سروراً يبقى ولا حزناً أيضاً، كل شيء إلى زوال، إنها نواميس الحياة.

مضت أشهر على فاجعة بيت نادر؛ بيت بدا كنزل أشباح، بينما الصمت المطبق، والوجوم والحزن يلفنا. يومياتنا رتيبة، انفرط عقد التواصل مع فيروز، فلا نجتمع على مائدة طعام، ولا كلاماً يدور بيننا، ولا سريراً يجمعنا، كانت القطيعة والجفاء. انفجرت بوجهي ذات يوم:

ـ لقد عشت مديدا حماقاتك وتفاهاتك، لن أتحمل مزيدا من ترّهات عجوز بائس مثلك، سأترك البيت... هل تفهم يا نادر؟. كانت آخر كلمات فيروز بينما كانت تحزم حقائبها، وتستقلّ سيارتها، لا أدري! لم كانت تتحامل بشيء من الغضب كأنّها تريد التخلّص من نادر سريعا.

أيامي بالبيت بطعم الوحدة ابن توفي، وبنت تزوجت، وزوجة هجرتني وتفكر بالطلاق.

ذات صباح تسلمت استدعاء من المحكمة، فيروز وأخيرا نفذت تهديداتها بطلب الطلاق.

لبست معطفي وبي رغبة في المشي بينما كنت لا ألوي على مكان ولا هدفًا لي أقصده، كنت أسير فحسب، لفت شوارع الحي لأكثر من مرّة كما يفعل المتسابقون في مضمار السباق، كنت في كلّ مرّة اتّخذ المسار نفسه، بالمرّة الثالثة اصطدمت بحسان سقط عكازاه ونظارته، ثّم راح يتفوه بشتائم، إلى أن انتبه لي قائلا: هذا أنت؟.

ثّم استحال اللقاء لقهقهة وسخرية، قال: أين ما وليت وجهي، أصادفك بطريقي يا نادر.

صمت قليلا ثّم بالنهاية فاض كنهر بدا متذمّرًا من حياته، وزوجته الّتي رفعت قضية طلاق؛ لأنّها ببساطة اكتشفت قبل فترة زواجه من فتاة عشرينية، ألّبت أولادهما وطرد من البيت، وهُدد من قبلهم، وأبدوا استعدادهم لرفع قضية حجر. فآثر الصمت، والعيش مع زوجته اليافعة بشقة مستأجرة.

ليحشر ياسين أنفه باقتراحه زيارة محامي ليقدّم لنا مشورة، المحامي كان ابن شقيقته ومكتبه قريب على بعد شارعين، ماذا ! هل سأرفض طلاق امرأة تريد الرحيل فتذهب إلى الجحيم ما حاجتي بمحام تلوي الرحيل، مع السلامة.

سارة ما كان يهمّها من أمرنا شيء. لم تبد أيّ عاطفة لوالدها، انتبذت امساك العصا من الوسط، وآثرت النأي بنفسها. يا لها من فتاة باردة قاسية.

حسان وزجته الأولى تطلقا، وراح ينام بحضن زوجته اليافعة، لقد وجد اللعين بديلا بينما أنا سأحتضن الوسادة الباردة.

مضت شهور تزوجت فيروز مرة ثانية من كهل يصغرها ببضع بسنوات. أكثر الأسئلة تتردد في ذهني، هل كانت تخونني؟، أكان اللعين سببا في طلاقها؟ أسئلة كنت أجترها لفترة، قررت الزواج، وفعلتها أخيرا...

إلا أني لن أغفر لها معاملتها لي، تقرّبت من عمال الروضة والحراس والعمال فردا؛ فردا. لأشهر كنت فيها أشبع جوع الفضول، وأعرض مبالغا مالية مقابل معلومات كانوا يطلعونني بها عن فيروز، وزوجها اللعين. أسئلة كيف، ولماذا؟، تثير فيّ الحيرة.

كانت زوجتي في عقدها الثالث لم تنل حظا وافرا من الجمال، وما كنت لأهتم لحسنها؛ بل جلّ اهتمامي الزواج فحسب، مضى عام ونصف أنجبت ولدا أسميته سامر.

***

أحيانا أحمل سامر الصغير بين ذراعي، وأحاول تذكّر المرحوم سامر حين كان بمثل عمر شقيقه، بيد أنّه هيهات... العبث ما كنت أفعله.

لا شبه بينهما، أسرع لألبوم الصور لأتأكد من شكوكي، أكنت مهووسا بسامر وبرغبتي رؤيته مجددا في صورة سامر الصغير؟، بيد أنّ ما ذنب سامر الصغير ورغبتي في رؤيته بصورة شقيقه.

أ كنت غبيا بتصرفي؟ أليس لكلّ إنسان كيانه؟، تبّا لي إن كان ما فعلته محاولة يائسة لرؤية سامر يشبه أخاه المتوفى. أخفيت أمانيّ وتخيلاتي عن أمه، لا أدري! أنّى يكون شعورها إن هي أدركت ما يجول بخاطري.

كانت فيروز عليلة، بنفسية مهزوزة كما أنها انخرطت في موجة اكتئاب، غدت سريعة الغضب شجارها وزوجها يحدث مرارا، ليقررا أخيرا

الفراق، علمت بحكايتها حين كانت سارة تطلعني بأخبارها حالما أتصل بها فتحدثني عن سوء صحة أمها العقلية ومتاعبها الأسرية.

كانت تسامر أشباحا ترى فيهم صورة سامر، وأحيانا يتراءى لها شبح لوحة الطفل الباكي. امتد غضبها لأطفال الروضة فتسيء معاملتهم. بالنهاية أغلقت الروضة لكثرة شكاوى أولياء الأولاد. رحلت لتعيش مع سارة ببيتها إلى أن أدخلت مصحة عقلية، قضت فترة تعالج ثم غادرت المصحة حالما تحسنت حالتها النفسية، كانت تحذو سارة رغبة في جمع شملنا ثانية؛ لكن لست مستعدا لفتح باب أغلقته بيدها، عادت لتقيم مع سارة، إلى أن غدا وجودها هناك غير مرحب به. لتغادر حين أدركت أنّ لا مكان لها في بيت زوج ابنتها، انتقلت للإقامة بالروضة المهجورة لتعيش بها أسيرة الماضي وذكرياته .

ذات مساء نامت فيروز ولم تستيقظ بعد أن ابتلعت علبة أدوية مهدئة. فيروز رحلت، ووجدت معها رسالة خطت بها كيف كانت تعيش بألم فقدان سامر وكيف حمّلتني مسؤولية فقدانه، تقدم شروحا أيضا كيف استحالت علاقتها بزوجها للأسوأ، ونهاية كل شيء جميل كان لها في يوم من الأيام.

بعد أسبوع زارت سارة البيت فبدت ذابلة، بكت وانفجرت بوجهي لتحملني ما جرى لوالدتها.

أشهر أحاول فيها مصالحة سارة بيد أنّي كنت ألقى الصدّ. فاستسلمت أخيرا.

أجلس عادة وحيدا بالشرفة، لم أعد أغادر البيت إلا نادرا، سامر وأمه يعيشان معي لكن يبدو أن أشياء كثيرة تنقصني، السلام الروحي، علاقتي بابنتي التي أنشد تحسنها، وذكرياتًا مؤلمة أمني النفس بنسيانها.

كثيرا ما أجدني مستغرقا في عالمي الصغير من الشرفة أتطلع للسماء غارقا في التأمل كالنساك، سمعت صوت سامر الصغير بينما كان يلهو في الحي بالكرة، كم من مرة حذرت أمه من مغبّة تركه بالشارع يتسكع وأطفال أكبر منه برتبة صعاليك نزقين يتفننون في مضايقة المارة بأفواههم التي تحترف إطلاق الشتائم والكلام البذيء، اقتربت من حافة الشرفة وضعت يدي على الشباك فلمحته للحظات يلعب.

عدت لمكاني لأتصفح جريدة، وانغمست بأخبار تحملها، ولم يمض وقت مديد حتّى راحت تخترق سمعي أصوات مكابح سيارة في الشارع، فقفزت كالمجنون مهرولا نحو الشباك...

مركبة لعينة، وصاحبها لعين اطفأت شمعة صغيري، وأشعت بقلبي نيران لافحة لا أظنها ستنطفئ عما قريب. مات سامر الصغير تحت عجلات سيارة فتوقف بي الزمن... هرولت كالمجنون ولم أشعر بي إلا وأنا أحمله بين ذراعي بينما كان مضرجا بدمائه.

لم تلبث، وأن رحلت أمه التي ما عادت تصطبر ولساني الحاد الذي كان يحملها التهاون واللامبالاة بترك سامر الصغير بالشارع، حقا كنت أنغص لها حياتها بسبب ما حدث، لم أفهم أنّها أقدار الله. وبمغادرتها كنت شيخًا تعيسا ووحيدا .

***

مضت شهور كنت أشعر فيها أنّي مخلوق بئيس، حزين... ذات صباح كنت جالسا على الكنبة أحدق بشاشة التلفاز كالأبله، مرّت أخبار الموت، والحروب، انخفاض أسعار النفط بالأسواق العالمية، فوز برشلونة تعادل ريال مدريد. تصدر بايرن ميونيخ، تألق مانشستر سيتي، وحده خبر نفوق آخر وحيد قرن أبيض ما أثار انتباهي وتابعت تقريرا يروي ساعاته الأخيرة، ثّم حملت كتابا لأتصفحه بينما كنت أشعر بالوحدة مثل وحيد القرن النافق، ها أنا في انتظار اللا شيء، آثرت الانزواء بالبيت. أقرأ كثيرا أفكر بلا ضجيج أنشد الهدوء والسلام إلى متى؟، لا أدري!.

أنا الآن شيخ خرف مليء بالقذارة يبول في سرواله يرى أشباحا يحسبها حقيقة، وبقيت وحيدا إلا من ذكريات ترمي شظاياها من كل زاوية بالبيت لتثير لواعجي .

الموت ما عاد يفاجئني ولا يفجعني غدوت متقبلا لزيارته، ما أحسست بساقي وجدتني تائها أسير ولا ألوي إلى قرار!. سارة آخر شيء جميل بحياتي أودعه، لقد رحلت بينما تضع حملها. ماتت، ومات معها جنينها، وماتت روحي معهما.

لطالما آثرت النأي بعيدا عن أشقائي لأنّي كنت أشعر بالتيه بينهم، وكانوا يبدون لي غرباء.

لا أنفك أعيش وحدة مريرة، وكنت أتنقل بين الآلام كعازف لسمفونية، طافحة بالحزن، فلا شيء تصنعه بي الحياة إلا شعورا بالإمتلاء

بالتعاسة، نادر الذي كنته كان يستيقظ على الألم ويعيش الألم ويتنقل بين سلم درجاته. لا يهمّ إن كان على سلم "ديل" أم "دول"، أم الدولومتر. المهمّ أنّ الألم ألم وحريق بروح نادر، كنت أسألني مرارا هل يمكن ترميم نادر الشيخ الذي كنته. لست أدري؟ أو ما نفعه حتى؟. ربما لأشعر بمزيد من الألم، أليس الشعور بالألم كمثل مطرقة تهدّ كبرياء المرء وتنثر شظاياه بالروح.

بلامبالاة أعيش حياتي الرتيبة، في عزلة طوعية صنعتها لنفسي بابتعادي عن أقارب لا يجمعني وإياهم إلا الاسم، حتّى الأصدقاء ما عاد يربطنا أيّ إتصال.

استيقظت في صباح باكر، ارتديت بدلة كلاسيكية، بقليل من العطر مسحت على وجهي، ثم ابتلعت قرص مهدئ برشفة ماء، نظرت للمرآة لمحت هالة سوداء أسفل عيني، كانت تشي بشيء من البؤس والشقاء أعيشه، وضعت الحبل على عنقي، ملأت فصي رئتي هواء ودفعت الكرسي من تحت أقدام. التراجع والجبن كان يغمرني حين وضعت يدي على رقبتي محاولا إرخاء الحبل المشدود، كنت أئن باستجداء وجهي أحمر كادت تتقطع أنفاسي، ورحت للحظات أتخبط سابحا في الفراغ.

انهارت الدعائم، وانقطع الحبل وسقطت أرضا، بقيت مستلقيا جامدا إلى أن طفقت أقهقه كالمجنون، ثم نزعت الحبل من رقبتي نفضت ملابسي، ونكصت أجرّ خيبتي لغرفتي، ارتميت إلى سريري لففت رأسي بين

ذراعي وطفقت شاردا تفيض بي أحداث وذكريات لأجترّها، كعنزة تستريح بعد أن التهمت برسيما، سرعان ما استسلمت لنوم بنكهة التعب.

استيقظت مساء، أبدو كالمعتوه أغمغم من كوابيس، بينما نبضات قلبي متسارعة، فكرت في حمام ساخن لعلّه يخفف جحيما أسكنه. سريعا ملأت الحوض بماء ساخن تحسست بيدي المرتجفة حرارته، نزعت ملابسي وطفقت أدندن أمام حوض الحمام بالكاد وضعت قدمي الأولى حتى انزلقت عند حافة المغطس، فمرّ ببالي وأنا أتهاوى حقيقة أن لا شيء كنت أفعله إلا المحاولة بمعاندة القدر.

أصابني نزيف برأسي وتلونت المياه بلون دمائي، لو سقطت قليلا ببضع سنتيمترات لربما دق عنقي. نهضت كالمخبول وأسرعت لتنشيف جسدي، وعلاج جرحي، أدرك أنّ برودة الجروح وبلا مسكنات تسبب آلاما رهيبة.

ما إن يطوي الرّدى المسنين حتى يغيب الماض، وحين يموت الأطفال والشباب يرحل المستقبل، الكل فان؛ بيد أنّ ما أشدّ الوطأة على قلب من موت أحباء، يرنوا لأجسادهم الباردة، وهم يشيعون، ليس أمامه إلا أن يبكيهم حتى تجف مآقيه، ثم يمضي أيّامه يائسا باردا من صقيع الوحدة، ومخدرا بالألم، عامرا بالفراغ .

أشعر الآن بلسعات باردة تسري بجسدي، فسارعت للارتداء هندامي، وبحثت عن علبة البنا دول فتناولت قطعة، ومعها أهرقت قليلا من الماء في جوفي، ثّم سريعا أعددت لي فنجان قهوة الذي حملته معي للغرفة، بينما كان الهاتف يرنّ مرارا؛ بيد أنّي ما أعرته بالا. صعدت

السلّم، وتجاوزت الرواق، ومشيت ألوي غرفتي وقفت مترددا أمام الباب دفعت المقبض فانفتح الباب واصلت بخطوات بطيئة صوب السرير، ارتميت به بينما طفقت أرمي ببصري محدقا في لوحة نادر وببالي أيّ لوحة كئيبة كنتها رسمها القدر، طفقت أتطلع نحوها، وأدقق بتفاصيلها بصمت، وشرود كالأبله. ثم حدثت نفسي بشيء من الحيرة هل كانت لوحات فتيان غجر أماديو والصبي الباكي التي كنت أعدّها مجرد حكاية إيطالية، بها لعنة أشعلت حرائقا في البيت، وحرائقا في روحي؟. لا أدري؟...

أمضي وقتي في اجترار الذكريات، شاردًا، أبلهًا، أقهقه بلا سبب، وحده الألم أتجرعه في كل يوم، وكل لحظة، لم أستطع أن أجابه محنتي أو تجاوزها.

في الحياة بعض مميزون وتلك لعنتهم، وآخرون منذرون للشقاء، وهناك الواهنون كالفراشة أو كبيت العنكبوت في الهشاشة.

سرعان ما انقطع حبل أفكاري بينما كنت على يقين أنّ لا خيار لي الآن؛ إلّا مواصلة الحياة في الانتظار، والأمل بشيء ما.

شغلت الموسيقى من اللاب توب وطفقت أستمع لشيء من أغاني أندريا بوتشلي ، أمديو ميناغي ، أورنيلا فانوني، وآخرون .

مضى وقت قبل أن ألمح خطبًا في اللوحة، يبدو لي كأن شبحًا بمثل هيئتي يقفز من الإطار ويقف منتصبًا محدّقًا بي، دون أن ينبس بكلمة، طفقت أرنو له بشيء من التحدّي، ثّم قلت بصوت خفيض: تبًا، أهي

لعنة نادر؟، بيد أنّه من سيصدّق شيخًا معتوهًا؟، هل يصدّق حديثه المضطرب؟ أو عقله الخرف؟ لست خائفًا ألبتة، ماذا بوسعه أن يفعل أكثر؛ ممّا فعلته النوائب بي؟؛ بل سيكون رفقة مسليّة في وحدتي على الرغم من أنّني كنت مقتنعًا أنّ الأصل في الإنسان الوحدة، وأدرك الآن أنّه ليس لنادر إلّا الوحدة.

فصل لحكاية.. لم تبدأ بعد.

بعد سنوات...

تقرير تلفزي ثقافي...

في خبر تردّد على منصات التواصل والمواقع الالكترونية والجرائد يشير إلى أنّه أرسلت لوحة من قبل مجهول عبر البريد إلى السلطات. بينما تقييمات النقاد كلّها اجمعت على جودة اللوحة. هذا وقد كانت حمىّ المزاد دفعت برجل أعمال إلى رفع عرضه إلى رقم كبير مقابل اللوحة... أما العائد المادي بحسب محافظ المزاد فقد تبرّعت به السلطات لدور العجزة والأطفال المسعفين.

اللوحة اللغز لا أحد يعرف حكايتها ولا كنهها سوى إمضاء صغير في أسفل الزاوية قرب الإطار وقد كتب "الشيخ الحزين" إضافة لحرفي "س. ن".